

أثر تدبر الفاتحة أم القرآن في بناء الإنسان

إعداد

أحمد بن محمد الشرقاوي

أستاذ ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن جامعة الأزهر

والجامعة الإسلامية المدينة المنورة سابقًا


بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ البحث عن الكنوز والوصولَ إليها أملٌ يراودُ كثيرًا من الحالمين، وحلُم كثيرٍ من الفتيان اليافعين حتى الشيوخ الطاعنين، يتنافسُ الجميع ويبذلون الغالي والثمين في البحث عن كنزٍ دفين من كنوز الدنيا الفانية. وسورة الفاتحة كنز عظيم، بما حوته من فضائل ومزايا، ومعانٍ ومعارف، تعرفنا وتبصرنا وتذكرنا وترشدنا، وتمدنا بالزاد والطاقة والنور، وهي مناجاة لربنا تحوي كل مطالبنا وطموحاتنا وآمالنا، وعهود نجددها أمام ربنا في كل ركعة نصليها، ومراجعة للنفس بين يدي خالقها، وعزم صادق نعقده على مواصلة السير بجدٍّ واجتهاد، لنلحق بركب من أنعم الله عليهم. إنها الكنز الحقيقي الجدير بأن نسعى إليه، كنز الرضا والطمأنينة، كنز الهداية والتوفيق، كنز الفلاح والنجاح، كنز الإيمان واليقين، كنز المعونة والإنعام، كنز يستوي عند من ناله ذهب الدنيا برمالها، فلا يلتفت لمتاع الدنيا الفاني

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر]

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله العليِّ الكبير، والصلاة والسلام على البشير النذير، نبيِّنا محمد صلى الله عليه وعلى آلِه الكرام، وصحبه الأسدِ المغاوير، ومن تبع سنته واقتفى أثره إلى يوم النشور.

أما بعد: فقد نزل القرآن هداية للناس وإرشادا، وبركةً وإسعادا، نزل لإصلاح الأمم؛ بتزكية النفوس وإرساء القيم، وتقويم السلوك وحفز الهمم، والترغيب في العمل الصالح النابع من إيمانٍ صادق، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

ومقاصد القرآن إنما تتحقق فينا بقدر تدبُّرنا وفهمنا للقرآن الذي به نجاتُنا وحياتُنا، فهو المنهاجُ الذي نسير عليه، والسراجُ الذي نبصرُ به، والكتابُ الذي بتلاوته نتعبَّدُ، وباتباعِه نسعدُ.

به نستمطر الرحمات ونلتمس البركات، وهو طريقُ الفلاح والفوزِ بالجنات، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥] وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، فهذا الكتاب المبارك العظيم الشأن نزل لتدبُّره. والتدبُّر مفتاحُ التذكُّر، والتذكُّر سبيل الوعي والنهوض.

وبركات القرآن سبيلُها تدبُّره والعمل به، قَالَ الْحَسَنُ: «وَإِنَّمَا تَدَبُّرُ آيَاتِهِ اتِّبَاعُهُ بِعَمَلِهِ»[(١)]، فإذا كان في تلاوة القرآن أجرٌ عظيم وثواب جزيل، فتدبُّره واجبٌ شرعيٌّ، ومطلبٌ ضروريٌّ، لأنه السبيل إلى الاستجابة والعمل، وكلما ترسخ علمنا بالتفسير تعمق تدبُّرنا للقرآن، قال إياس بن معاوية:

«مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره: كمثل قومٍ جاءهم كتابٌ من ملكِهم ليلًا وليس عندهم مصباحٌ، فتداخلتْهم رَوعةٌ ولا يدرون ما في الكتاب، ومثلُ الذي يعرفُ التفسيرَ كمثل رجلٍ جاءهم بمصباحٍ فقرءوا ما في الكتاب»[(٢)].

إننا على موعد من خلال هذا الكتاب مع كنزٍ عظيم، كنز من كنوز الآخرة، بل ومن كنوز الدنيا، كنز جامع لكل نفيس، كنزٌ من كنوز العرش، لا يحتاج لشدِّ الرحال وقطع الفيافي والقفار، وركوب متن الأخطار واقتحام أهوال البحار، لا يحتاجُ إلى صراع

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، أبي بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ) (٣/ ٤٠٧). والحسن البصري من علماء التابعين: ولد في خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وتوفّي سنة ١١٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي (ت: ٦٧١هـ). (١ / ٢٦). إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ: ويكنى أبا واثلة. من الطبقة الثالثة من التابعين ثقة. وكان قاضيًا على البصرة وله أحاديث. وكان عاقلًا من الرجال فطنًا. الطبقات الكبرى ط العلمية (٧/ ١٧٥).

ومعارك في سبيل الاستئثار به، كنزٌ لا يضطرنا إلى المخاطرة بأرواحنا أو مفارقة بلداننا، لأنه بين أيدينا، وبمتناولنا ومقدورنا أن نفتحه.

إن كنوز الدنيا تبيد وتفنى ولا تحقق لنائلها السعادة المبتغاة، بل قد تكون سببًا للنكد والشقاء، والحسد والصراع، لكن الكنز الذي بين أيدينا ليس فيه حقٌّ لسلطان ولا مطمعٌ لقُرصان، كنزٌ يحقق السعادة لمن ناله، سعادة لا تضاهيها سعادة، ولذة ما أحلاها.

لو ذاقها أهل العروش تجهَّزوا يبغونها بصوارم ودروع

الكنز الذي بين أيدينا ليس من درٍّ وياقوت أو زبرجد وزمرد، أو ذهب وفضة، لكن نفاسته تفوق كلّ نفيس، إنه كنز الإيمان واليقين والسكينة والرضا والحق والهُدى، كنز المعرفة والاستقامة، كنز الهمة والطاقة.

كنز سورة الفاتحة: أعظم عطاء رباني منَّ الله به على أعظم الأنبياء وأكرم به أعظم الأمم، وكيف لمن وهبه الله هذا الكنز أن تمتد عيناه إلى أحجار الدنيا أو إلى ترابها وحصبائها! أو يتعلق قلبه بقصورها ومدائنها وجِنانها، قال تعالى مخاطبا رسوله الكريم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٧ ـ ٨٨].

لقد تأملتُ سورةَ الفاتحة فوجدتُها كنزا زاخرا، نتلوها ونكررُها في صلواتنا بالليل والنهار، وقد ورد فيها من الفضائل ما يحفِّزنا على قراءتها وتدبُّرها، ويلفت أنظارنا إلى

عظمتها وتفرُّدها، ففيها صياغةٌ للشخصية الإسلامية، وبناءٌ وارتقاءٌ بالمجتمع المسلم، تلك الصياغة التي تحتاج لحرارة إيمانية عاليةٍ، تصهر القلوبَ وتلينها، وها نحن نقرأها بين يدي ربنا كلَّ يومٍ في صلواتنا، فُرادى وجماعات بما يمنحنا الفرصة تلو الفرصة للتغيير والنهوض والارتقاء.

«هَذَا وإِنَّهَا الْمِفْتَاحُ الْأَعْظَمُ لِكُنُوزِ الْأَرْضِ، كَمَا أَنَّهَا الْمِفْتَاحُ لِكُنُوزِ الْجَنَّةِ، وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يُحْسِنُ الْفَتْحَ بِهَذَا الْمِفْتَاحِ. وَلَوْ أَنَّ طُلَّابَ الْكُنُوزِ وَقَفُوا عَلَى سِرِّ هَذِهِ السُّورَةِ، وَتَحَقَّقُوا مَعَانِيَهَا، وَرَكَّبُوا لِهَذَا الْمِفْتَاحِ أَسْنَانًا، وَأَحْسَنُوا الْفَتْحَ بِهِ، لَوَصَلُوا إِلَى تَنَاوُلِ الْكَنْزِ مِنْ غَيْرِ مُعَاوِنٍ وَلَا مُمَانِعٍ»[(١)].

عَن عَليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «نزلت فَاتِحَة الْكتاب بِمَكَّة من كنز تَحت الْعَرْش»[(٢)].

وهنا نتساءل: هل أدرك الناس هذا الكنز العظيم؟ هل سارعوا إليه؟

من المؤسف أن كثيرا من الناس قد انصرفوا عن هذا الكنز العظيم وأهدروه، وضيَّعوا جواهره وفرّطوا في يواقيته، حين جرت الفاتحة على ألسنتهم ولم تتحرك لها قلوبهم،

(١) الاستعانة بالفاتحة على نجاح الأمور، يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن ابن عبد الهادي الصالحي، جمال الدين، ابن المبرد الحنبلي (ت ٩٠٩هـ) (ص: ٣٧٤) جزء مطبوع ضمن كتاب جمهرة الأجزاء الحديثية.

(٢) أخرجه الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول (ص: ١٩)، والثعلبي فِي تَفْسِيره الكشف والبيان (١ / ٨٩). كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (١ / ١٠).

حين قصروا الفاتحة على الأموات، ولم يقرنوها بمعاشهم، بل ارتبط ذكرها بالموت واقترن بالرقاد والسبات، أهذه الفاتحة التي نزلت لبعث الأرواح وإحياء القلوب وإيقاظ الهمم ! تنقش فحسب على الجدران ويُكتفى بقراءتها على القبور! فما حال أكثر الناس إلا كمن وجد كنزا ثمينا فاكتفى بطمره في الثّرى، أو قنع بتقبيله والتمسُّح به، أو علّقه على جدارٍ أو أودعه في خزانة، مع حاجته الشديدة إليه، فلم يعد يتذوق للصلاة لذةً، ولا يتوق إليها كما كان سلفنا، وما ذاك إلا لإهدار هذا الكنز، وتعطيل تلك الحليّ، والتفريط في هذه الثروة العظيمة.

كم من المؤسف ما نلمسه من عزوف أكثر الناس عن تدبُّرها، وانصرافهم عن هداياتها وحرمانهم من ثمراتها؛ غافلين عما فيها من معانٍ ومقاصد، لها تأثيرها على النفوسِ تُزكّيها، وعلى القلوب تصلحها وتجلوها، رغم تنويه الله تعالى في كتابه بمزيّتها، فضلا عن الأحاديث والآثار الكثيرة الواردة في فضائلها، ومع كثرة أسمائها وأوصافها، وجلال مقاصدِها وسموِّ أهدافها وروعة أسلوبها وتدفُّق معانيها، وثراءِ كلماتها، فهي كنزٌ زاخرٌ وطاقةٌ متجددةٌ، وشجرةٌ مغدقةٌ بالثمار الطيبة. كما قال الشاعر:

وأشدُّ مَا لاقيتُ من ألم الجَوى ... قربُ الحبيب وَمَا إليهِ وُصُولُ

كالعيسِ فِي الْبَيْدَاء يَقْتُلهَا الظما ... والماءُ فَوق ظُهُورهَا مَحْمُولُ [١]

(١) الجوى: الحرقة وشدة الوجد. العيس: إبل بيض يخالط بياضها شُقْرة، وهي كرائِمِ الإبل. البيداء: قيل هي: الأكمة الكبيرة الحجارة، سوداء؛ وهي البيد. وفي الصحاح: الصحاح للجوهري (٢ / ٤٥٠): «البَيداءُ: المفازة، والجمع بيد. وباد الشئ يبيد بيدا وبيودا: هلك». والبيتان لطَرفة بن العبد.

يقول الغزالي:

«أيُّها المُسترسِلُ في تِلاوَتِك، المُتَّخِذُ دراسة القرآن عملاً، المُتَلقِّفُ من معانيه ظواهر وجُمَلاً، إلى كم تطوف على ساحل البحر مُغَمّضاً عينيك عن غرائبها؟ أَوَما كان لك أن تركب مَتْنَ لُجَّتِها لِتُبْصِرَ عجائبَها؟ وتسافر إلى جزائرها لاجتِنَاء أطَايِبِها؟ وتغوصَ في عمقها فتستغني بِنَيْلِ جواهِرِها؟ أوَما تُعِيرُ نفسكَ في الحرمان عن دُرَرِها وجواهرها بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها؟ أوَما بَلغك أن القرآن هو البحر المحيط؟ ومنه يتشعَّب علمُ الأَوَّلينَ والآخرِينَ كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارُها وجداوِلُها؟ أوَما تَغْبِطُ أقواماً خاضوا في غَمرة أمواجها فظفروا بالكبريت الأحمر؟ وغاصوا في أعماقها فاستخرجوا الياقوتَ الأحمرَ، والدُرَّ الأزهَرَ، والزَّبَرْجَدَ الأخضر؟ وسَاحوا في سواحلها، فَالتَقَطُوا العَنبرَ الأشهَب، والعودَ الرَّطب الأَنضرَ؟ وتعلَّقوا إلى جزائرها واستَدَرُّوا من حيواناتها التِّرياقَ الأكبر، والمسك الأذْفَر»[(١)].

(١) جواهر القرآن، للغزالي أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ) (ص: ٢٢). والكبريت الأحمر: من المعادن النادرة الوجود، ويدخل في عمل الذهب عند أهل الصنعة. وفي المثل: أعز من الكبريت الْأَحْمَر. جمهرة الأمثال للعسكري (ت٣٩٥). (٢/ ٣٢) قال الزبيدي في تاج العروس (٥/ ٥٤) «ويَصْلُح لأَنواع من الكِيمياءِ». «ومِسْكٌ أذْفَر أي ذَكِيٌّ جيِّد». العين للخليل الفراهيدي (٨/ ١٨١)، والعنبر الأشهب أجود أنواع العنبر. والترياق دواء من السموم والسحر. قال ابن منظور في لسان العرب (١٠/ ٣٢): «الترياقُ: مَا يُستعمل لدَفع السّمّ مِنَ الأَدْوية والمَعاجِين، وَيُقَالُ دِرْياق، بِالدَّالِ أَيضاً».

هذا وإن صياغة الشخصية الإنسانية من أهمِّ مقاصد الدين، فالفردُ المسلم لبنةٌ في بناء المجتمع، بصلاحه واستقامته وإيمانه وإيجابيته واعتداله وتوازنه ووعيه وثقافته، ينهض المجتمع ويرقَى، ويسعدُ دُنيا وأُخرى. وقد أثبت علم النفس أن قوة الشخصية شرط أساسي للنجاح في الحياة، وأن المؤهلات العلمية وحدها لا تكفي للنجاح، وحين نتأمل في واقعِنا نلحظُ تلك المؤامرات المتلاحقة لسلخ المسلم عن هويَّته وانتزاعه من قيمِه، واستبدالها بقيمٍ وأعرافٍ غريبةٍ عن المجتمع، أو الخلط بين القيم الإسلامية وإفرازات الديانات المحرّفة ومُخلَّفات الفلسفات الحائرة، وأخلاط المذاهب الوضعيّة؛ لتمييع الشخصية الإسلامية وتذويبها في بحار العولمة والتغريب؛ من هذا المنطلق راودتني فكرة هذا الكتاب: «الكنز المنشود أثر تدبر الفاتحة أم القرآن في بناء الإنسان»، والذي سيدور -بإذن الله- حول بيان كون هذه السورة منهاجَ حياةٍ، وقواعدَ إصلاحٍ للفرد والمجتمع، كيف تنهضُ بقارئها، كيف ترقى به إلى آفاقِ الفضيلة، كيف تُبصِّرنا بالطريق، وتمدُّنا بالزاد، والطاقة التي تبلّغُنا المُراد! كيف تسهم في صنع الإنسان كما أراده ربه، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

هذا وللعلماء عندها وقفاتٌ جليلةٌ، ونظراتٌ عميقةٌ، يحتاجُ التنقيبُ عنها للإبحارِ والغوص في كتبِ التفسير لاستخراجِ ما تيسر من تلك الدرر، فتعمِّقُ تدبُّرَنا للسورة، وتشحذُ همَّتنا لهذا الكنز العظيم.

أهداف الكتاب:

- صرف الهمم والبصائر إلى عظمة سورة الفاتحة، وتأثيرها العجيب، وفضائلها الكثيرة وخواصِّها الفريدة، وحِكمة قراءتها في الصلوات.
- العيش في رحاب سورة الفاتحة، وشحذ الهمم، وجمع الفِكَر، وتهيئة النفوس، وتنوير الأذهان لتدبُّرها.
- إبراز معالم الشخصية المسلمة وأُطُرِ صياغتها من خلال سورة الفاتحة.
- المساهمة في الدراسات القرآنية المتعلقة بالتدبُّر وتوجيهها توجيها عمليا، ينتفع به الناس.
- الانتفاع بهديِ القرآن الكريم في إصلاح النفس والمجتمع.
- جمع ما انتثر في الكتب من لطائف وفوائد ودرر حول هذه السورة العظيمة.

وللمفسرين وقفاتٌ ونظراتٌ في سورة الفاتحة من خلال تفاسيرهم، لكن هناك من أفردها بالتأليف قديما وحديثا، الإمام عبدالعزيز الديريني ٦٩٤هـ في الأنوار الواضحة في تفسير الفاتحة، والحافظ ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥) ومن العلماء من أولاها عناية خاصة في مؤلفاته كالإمام ابن القيم. ومن المعاصرين المشايخ: عبد الحكيم قاسم، وعصام العويد وناصر العمر، وغيرهم.

أما عملي في هذا الكتاب فإبراز معالم الشخصية المسلمة التي يصوغها الإسلام في ضوء تدبُّر هذه السورة العظيمة، وقد اطلعت على أغلب ما كتب في تفسير السورة، وأطلت التأمل في معانيها، بالإضافة إلى تتبعي لأهم ما كُتب عن الشخصية المسلمة لتتعمق الفكرة لدي وتتضح الرؤية:

أما عن محتوى هذه الدراسة فقد بدا لي أن أجعلها في أربعة فصول:

الفصل الأول: لماذا سورة الكنز؟ سورة الفاتحة أسماؤها وأوصافها وفضائلها.

الفصل الثاني: خريطة الكنز، «الأسباب المعينة على تدبر السورة».

الفصل الثالث: رحلة البحث عن الكنز، معالم على طريق بناء الشخصية في ضوء سورة الفاتحة.

الفصل الرابع: الفوز بالكنز، أثر تدبر الفاتحة في صياغة الشخصية المسلمة.

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المقومات الأساسية للشخصية في ضوء تدبر السورة.

المبحث الثاني: السمات الفردية للشخصية في ضوء تدبر السورة.

المبحث الثالث: السمات المجتمعية للشخصية في ضوء تدبر السورة.

أما عن منهجي في الكتاب: فعلى النحو الآتي:

١. تدبر سورة الفاتحة واقتباس الهدايات التي تساهم في صياغة الشخصية التي يرتكز عليها المجتمع المسلم.
٢. جمع ما تيسر من لطائف وفوائد -متعلقة بصياغة الشخصية والتي استنبطها العلماء أو تجلَّت لهم من خلال سورة الفاتحة - من بطون كتب التفسير وغيرها.
٣. بيان سمات الشخصية المسلمة في ضوء سورة الفاتحة، مع تجلية أثر قراءة السورة في إصلاح النفوس.
٤. الإفادة من الدراسات والبحوث المتعلقة بالشخصية وتزكية النفس وتطوير الذات، سيّما ما كتب منها بمنظور شرعي.
٥. اتباع المنهج العلمي في التوثيق والتخريج والعزو بالنسبة للنقول والأحاديث والآثار والحِكم والأمثال والأشعار، مع تعريف ما يحتاج لتعريف من المصطلحات والأعلام وغوامض الألفاظ وغير ذلك.
٦. كنت قد كتبت هذا البحث أولا، للمؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن الكريم بالدوحة ١٤٣٣هـ، ثم بدا لي أن أعيد النظر فيه، فتوسعت فيه، وحررته من الطريقة المتبعة في كتابة البحوث لينتفع به القراء على اختلاف مشاربهم وتفاوت مستوياتهم، وجعلته مادة لخطبي، كما عرضته على بعض شيوخي وزملائي وطلابي،

وألقيت منه خطبا ودروسا ومحاضرات عامة، آخرها في مسجد مقر جمعية تحفيظ القرآن بباكستان- كراتشي، واقترح علي الكثير أن أطبعه، بل وترجمته، فأعدت فيه النظر مرارا وتكرارا، حتى خرج بهذه الصورة، التي هي في الحقيقة خلاصة تدبري، ونهاية اجتهادي. والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم.

كتبه أحمد بن محمد الشرقاوي.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

لِمَاذَا سُورَةُ ٱلكَنْزِ ؟

سُورَةُ ٱلْفَاتِحَةِ أَسْمَاؤُهَا وَأَوْصَافُهَا وَفَضَائِلُهَا

تمهيد

تحتاج النفوسُ في تغييرها وصياغتها إلى طاقة متوهجة، وانطلاقة قوية ترتكز على قاعدة حصينة، فالحديد لا يتم صياغتُه وتشكيله ليُنتفع به إلا بعد تعريضه لحرارة شديدة، والذهب لا يتم تنقيته من الشوائب إلا بعد إدخاله النار الحامية.

والقرآن الكريم هو الركيزة الأساسية لا بما يرسِّخه من إيمان ومعرفة، وقيمٍ وأخلاق، واعتقاد وسلوك فحسب، بل بما يمده لنا من طاقة وزاد تعيننا على العمل والسلوك، من هنا تأتي أهمية التلاوة والتدبر وأثرهما العظيم في صياغة الشخصية المسلمة التي تعظّم كتاب ربها وتأخذه بقوة وعزيمة، صياغة الشخصية المسلمة بإصلاح العقيدة وتزكية النفوس وتصفية القلوب.

صياغة الشخصية المسلمة بتصحيح المفاهيم والتصورات التي التبس الحق فيها بالباطل.

والفاتحة أعظم سورة في القرآن، لها من الفضائل والمزايا مالم يجتمع لغيرها من سور القرآن، فهي سورة الصلاة وسورة الشفاء. ومما يدفعنا إلى تدبُّر هذه السورة والمداومة على تلاوتها والجدِّ في التماس بركاتها واقتباس أنوارها، الوقوفُ على ما حُفَّت به من فضائل، وما زُفَّت به من بشائر، وما لها من أسماء وأوصافٍ وخواصٍّ، تجعلُ القارئ أشدَّ شوقا

وأعظم حرصًا على الانتفاع بها، فقد أثنى الله عليها في كتابه، ونوَّه النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونبَّه على فضائلها، فضلا عن آثار السلف وكلمات الفقهاء وتجارب الصالحين التي تحفزنا لتلاوتها وتدبُّرها بعناية. إن تلك المزايا والفضائل لمحفزات إلى تلاوتها بتدبرٍ، لنفوز بكنوزها.



المبحث الأول: أسماء السورة وأوصافها

لسورة الفاتحة أسماءٌ عديدة وأوصافٌ جليلة، تزيدنا تعظيما لها وفهما لمقاصدها، وعونا على تدبرها، من تلك الأسماء ما هو توقيفيٌّ ومنها ما هو اجتهاديٌّ، وقد عُني العلماءُ بذكرها وبيانِها، حتى عدَّ السيوطيُّ لها فوق العشرين اسما، فقال:

«وقد وقفتُ لها على نيِّفٍ وعشرين اسما، وذلك يدلُّ على شرفِها، فإن كثرة الأسماءِ دالَّةٌ على شرف المسمَّى»[١].

وقال الفيروزأبادي في البصائر:

«أسماؤها قريبة من ثلاثين: الفاتحة، فاتحة الكتاب، الحمد، سورة الحمد، الشافية، الشفاء، سورة الشفاء، الأَساس، أَساس القرآن، أُمّ القرآن، أُمّ الكتاب، الوافية، الكافية، الصّلاة، سورة الصّلاة، السّبع المثاني؛ لأنها تُثْنَى في كل صلاة، أَو لاشتمالها على الثَّناء على الله تعالى، أَو لتثنية نزولها، سورة الثناء، سورة أُمّ القرآن، سورة أُم الكتاب، سورة الأساس، الرُّقْية...»[٢].

(١) الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١). (١ / ١٨٧)

(٢) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزأبادي (ت:٨١٧هـ). (١ / ٨٨).

❶ فاتحة الكتاب، الفاتحة:

سُميت السورة الكريمة بفاتحة الكتاب، حيث استفتح الله - تعالى - بها آخر كُتبه المنزّل على خاتم رسله، فكانت عنوانا ودليلا على هذا الكتاب، يطوي لنا في أوجز بيان وأيسر عبارةٍ مقاصدَه الجليلة، ومعانيَه الجامعة، وفاتحة الكتاب تدلُّ على مضمونه ومقصوده، ففيها من روعةِ الاستهلالِ وحُسْنِ المطلعِ وإشراقة الديباجة ما يُبْهِرُ البُلغاءَ، ومِن ثَمَّ فقد أعطتنا السورةُ مقدمةً موجزة لهذا الكتاب، بما اشتملت عليه من كليّاتٍ وعموميّات تمهِّد لما يليها من تفصيل وبيان، وهذا هو سرُّ تسميتها بأمِّ الكتاب وأمِّ القرآن، ووصفها بأعظم سوَره؛ لأنها تضمُّ مقاصدَه وتحوطُ بمعانيه، إحاطة السِّوار بالمعصم، والسِّياج بالبستان، فتقدِّم لنا رسالة القرآن في كلماتٍ وجيزةٍ يسيرة، جمعت بين المعرفة والغاية والمنهج والثمرة: معرفة الله تعالى، وحقِّه على العباد، والغاية التي من أجلها خُلقنا، والمنهج الذي نترسَّم به طريقَنا نحو تحقيق هذه الغاية السامقة، والثمرات التي نجنيها من حدائقها الغنّاء وروضاتها المونقة.

وحيث نزل القرآن خطابًا للإنسان وهداية له ومنهاجًا؛ فقد جاءت الفاتحةُ ببيان رسالة الإنسان في هذا الوجود، ونظرته للكون والحياة، والتعريف بأصله ونشأته، والتبصِرة بآمالِهِ وطموحاتِه التي ينبغي أن ينشدَها ويسعَى لها، وبيان معالم المنهجِ الذي يترسَّمُه والقدوة الصالحة التي يتمثَّلُها مع التحذير من المسالك المعوجَّة والبراءة من سالكيها.

❷ أمّ الكتاب وأمّ القرآن:

حيث جمعت مع إيجازها أصول الإيمان: الإيمان بالله تعالى وصفاته العلى، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر، والإيمان بالرسل والكتب التي أنزلها الله تعالى لتبيِّن هذا الصراط، والإيمان بجميع العوالم الغيبية فضلا عن المشاهدة. قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. ومن جملة تلك العوالم: الملائكة الذين هم سفراءُ الوحي، والإيمان بما قصَّه القرآن على وجه الإجمال والتفصيل من أحوال السابقين ومواقفهم من الصراط ومصيرهم، فضلا عن إعلان الولاء للمهتدين والبراء من الذين عرفوا الحق فجحدوه، فباءوا بغضب من الله، والذين ضلُّوا عنه فتخبَّطوا في متاهات الضلال. عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال:

«﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني، والقرآن العظيم»[1].

فسميت أم القرآن، لأنه ابتديء بها، فهي أصله وابتداؤه، ولأنها أيضًا اشتملت على معاني القرآن كلها، كما سميت مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها، وجمعها ما سواها[2].

(١) الحديث ٤٧٠٤, أخرجه الإمام أحمد بنحوه ٢: ٤٤٨. ورواه ابن جرير بلفظ: «هي أم القرآن, وهي فاتحة الكتاب, وهي السبع المثاني».

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ١ / ١٠٧ ـ ١٠٨. والكشاف للزمخشري ١ / ٤. وتفسير ابن كثير ١ / ٢٢. واللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب، سليمان اللاحم (ص: ١٨٥).

ومن جوامع هذه السورة الكريمة اشتمالُها على حقِّ الله تعالى على عباده وحقهم عليه جلَّ وعلا، فحقُّه عليهم حمدُه والإيمان بربوبيته وإخلاصُ العبادة له، والاستعانة به وحده، وحقُّهم عليه رعايتُهم ورحمتُهم، ومعونتُهم وهدايتُهم والإنعام عليهم. فأول السورة في بيان حق الله، وآخرها في بيان حقوق العباد.

قال الشيخ محمد عبده في تفسيره لسورة الفاتحة:

«الفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن. وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها... قال: وبيان ما أريد: أن ما نزل القرآن لأجله أمور: أحدها: التوحيد. ثانيها: وعد من أخذ به، وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يأخذ به، وإنذاره بسوء العقوبة. ثالثها: العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبته في النفوس. رابعها: بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة. خامسها: قصصُ من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكامِ دينه، وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهريًّا لأجل الاعتبار، واختيار طريق المحسنين»[(١)].

(١) تفسير سورة الفاتحة، الشيخ محمد عبده،المنار ١٣١٩هـ ص ٢٣ - ٢٧ باختصار. والشيخ محمد عبده من علماء الأزهر وشيوخه (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ)، وله آراء تجديدية تأثر بها بعض من جاء بعده، منها ما هو محل إنكار بعض العلماء المحققين.

3 سورة الحمد:

فقد استُهلّت بحمد الله لربوبيته جميع العوالم، وهي سورةٌ من بين خمس سور استُفتحت بحمد الله على ما اتصف به من صفات الكمال، وعلى ما أسدى من النعم الدينية والدنيوية، العاجلة والآجلة، سورة الأنعام والكهف وسبأ وفاطر، ولذا كان استهلالها بالحمد من أعظم البيان، فالحمد من أعظم ما يقرِّبنا من ربنا، ومن أجل الوسائل بين يدي الدعاء، ولذا جاء في حديث الشفاعة:

«... فَأَنْطَلِقُ فَآتِي، تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ...»[١].

ولا شك أن أعظم الثناء على الله أن يكون بما أثنى به على نفسه تعالى كما في حديث نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «...لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[٢].

4 السبع المثاني:

سبعُ آيات تثنَّى في الصلاة، ما يدلُّ على عظمتِها وجلالِها وما انطوتْ عليه من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير ح٤٤٣٥، وأخرجه مسلم في صحيحه ك الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة ٣٢٢ ـ (١٩٣)

(٢) صحيح مسلم،كتاب الصلاة (١/ ٣٥٢) ح ٢٢٢ ـ (٤٨٦) وسنن الترمذي (٥/ ٤٠٢).

معانٍ جامعة، جديرةٍ بأن تُكرَّر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

والتعبير بالإيتاء لبيان عِظَمِ المنةِ وخصوصيتها، فهي عطاءٌ لا يضارعُه عطاءٌ، وقرةُ عينٍ ونعيم لا ينفدُ، وكنزٌ لا يبيدُ، لذا أعقب الله هذه الآية بقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، فمن أوتي هذه المثاني وهذا القرآن العظيم، لن يمتدَّ بصرُه ولن تطمحَ نفسُه لشيء زائل من أعراض الدنيا، بل سيمضي في طريقه إلى تحقيقِ غاية وجوده ونيل مرادِه، غيرَ آسفٍ على من ضيَّع الطريقَ وانغمس في المتع والملذات، رفيقا حانيا بالمؤمنين، يشملُهم بحبِّه وعطفِه ويحوطُهم برعايته ولطفه.

من استشعر عظمة هذا العطاء من أمعن تدبر هذه السورة، من أدرك قيمة معانيها، لن يخدعه بريق الدنيا، ولن يستميله متاعها الزائل، لن تستهويه قصورُها، ولن تأخذ بقلبه زينتها وزخارفها.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أُمُّ الْقُرْآنِ وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي»[١].

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ حديث ٤٤٢٧.

هي السبع المثاني: لأننا نرددُ آيها في كل صلواتنا، نكرِّرها ونستحضرها لتجديد العهد مع الله تعالى، وحفز النفوس وشحذ الهمم وتقوية العزائم؛ كي نمضي قُدُمًا على طريق الهداية، وفي تكرارِها أيضًا تجديدُ الإيمان، وزيادتُه، وفي تثنيتها إلحاحٌ في الدعاءِ والطلبِ، وشفاءٌ للأرواحِ ورَواحٌ للقلوبِ وزكاةٌ للنفوسِ.

كرِّر عليَّ حديثَهم يا حادي   فحديثُهم يجلو الفؤادَ الصادي [1]

فالتكرار يرسخ مفاهيمها ويجدد تعاليمها، والتكرار يعني تجديد الطاقة وشحذ الهمة كلما قرأناها،

«..... ولابد من الإشارة إلى أن في التكرار أثرًا ملموسًا في التأثير على الجماعات والأفراد، فإذا تكرر الشيء رسخ في الأذهان رسوخًا ينتهي بها إلى قبوله وهذه حقيقة ساطعة» [2].

ومن أغراض التكرار النفسية التأثير على النفوس «لأن المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها، كما هو مقرر في علم النفس» [3].

---

(١) البيت ذكره النووي في بستان العارفين (ص: ٨٠).
(٢) مع الأنبياء في القرآن الكريم (قصص ودروس وعبر) عفيف عبد الفتاح طبارة ص ٢٧.
(٣) سيكولوجية القصة في القرآن، التهامي نفرة ص ١١٦ .

أُكَـرِّرُ فِيكُـمُ أَبَـدًا حَدِيـثِي   فَيَحْلُـو وَالْحَدِيـثُ لَـهُ شُـجُونُ

وَأَنْظِمُـهُ عُقُـودًا مِـنْ دُمُوعِـي   فَتَنْثُرُهُ الْمَحَاجِـرُ وَالْجُفُـونُ[١]

والسورة كلُّها ثناءٌ على الله تعالى جديرٌ بأن نرددَه آناء الليل وأطراف النهار.

عن قتادة في تفسير ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ قال: فاتحة الكتاب تُثْنى في كل ركعة مكتوبة وتطوّع[٢].

و﴿ٱلۡمَثَانِي﴾ وصفٌ للقرآن كله، لكونه يثنّى أي يكرر.

ومن أوصافها:

سورة الرقية وسورة الأساس، باعتبارها أساس القرآن المشتملة على أصوله، وسورة الشفاء؛ لكونها أساسَ القرآن، ولتأثيرِها العظيمِ كرُقيةٍ وعلاجٍ للأمراض البدنية والنفسية. وهي مجربةٌ كما سيأتي في فضائلها.

(١) الأبيات لعبد الله بن أحمد المكي الصالحي، الأديب الزاهد (ت ٧١٨).

(٢) جامع البيان للطبري (١٧/ ١٣٦).



المبحث الثاني: فضائلها

ليس في القرآن الكريم سورة جمعت من الفضائل ما جمعته سورة الفاتحة؛ وفي هذا تنويهٌ بمزيتها، وحضٌّ على تلاوتها وتدبرها.

أولا: أعظم سورة في القرآن

القرآن كله عظيمٌ، فهو كلام ربّنا العظيم، نزل بمقاصد عظيمة، كما كان نزوله حدثا عظيما، واشتمل على معانٍ كلِّها عظيمة. تتجلى عظمة منزِّله في كل آيةٍ، وفي كل معنى، وفي كل خطاب، وسورة الفاتحة هي أعظم السور، لها من المزايا والفضائل ما لم يجتمع لغيرها، عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟»، ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ الْمَسْجِدِ!» ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»[١].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كِتَاب فضائل القرآن - بَاب مَا جَاءَ فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ حديث ٤١١٤.

فتأمّل كيف لفت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عظمة السورة بهذا الأسلوب المشوِّق؛ ترغيبا في تلاوتها وحثًّا على تدبُّرها وتمثُّلها؛ لنيل خيراتها وجني ثمراتها، فآياتها آيات الحمد والثناء والمجد، وقد استوعبت معاني القرآن حتى حقَّ وصفُها بالقرآن العظيم، فضلا عن الإيجاز بأبهى صُورِه والبلاغة بأروعِ أساليبها، تتدفَّقُ من ثنايا النصوصِ الجامعةِ، وتتألَّق من سَنَا التعبيرات القرآنيةِ الرَّائعة، وصدق من قال:

جاءَ النبيُّون بالآياتِ فانصرمتْ ... وجئتَنَا بكتابٍ غيرِ مُنصرمِ

آياتُهُ كلما طَالَ المدَى جُدُدٌ ... يَزِينُهُنَّ جمالُ العِتْقِ والقِدَمِ

كالدُّرِ يزدادُ حُسنًا وَهْوَ منتظمٌ ... وليسَ ينقُصُ حسنًا غيرَ مُنتظمِ[1]

فكلَّما أمعنْتَ النظرَ وأطلتَ التدبُّر وأجلْتَ الفِكرَ في سورة الفاتحة: وجدتَ نفسَك أمام معنى جديدٍ، غير الذي سبق إلى فهمِك أولَ مرَّةٍ، وكذلك حتى ترى للجملةِ الواحدةِ وُجوهًا عدَّة، كُلُّهَا يحتملُها النصُّ، كأنَّما هي دُرَّةٌ يتيمةٌ تُبهِر الأبصارَ كلَّما نظرتَ إليها من أيِّ ناحيةٍ وجدتَ حسنًا وجمالاً، وروعةً وبهاءً.

فهلا استشعرنا عظمة هذه السورة حين نتلوها في الصلوات والمجالس!

إن مفتاح هذا الكنز العظيم أن نعظِّم هذه السورة، نستحضر عظمتها، نستلهم جلالها.

---

(١) ديوان البوصيري.

ثانيا: أم الكتاب وأم القرآن.

فقد اشتملت على مقاصد القرآن واستوعبت معانيه. وقد سبق بيان ذلك في أسمائها، فعلينا أن نستحضر هذا الفضل حين نقرأها، نستشعر أننا نقرأ فيها سورَ القرآن كلّها، مما يشعرنا بمزيتها وأهميتها، ويفتح لنا عن دررها المكنونة، ونفائسها المخبوءة. ففي استحضار تلك الفضائل والمزايا عند تلاوتها شحذ للنفس وجمع للقلب وصرف للهمة نحو هذا الخير.

ثالثا: سورة الصلاة

الفاتحة سورة الصلاة، يناجي بها المؤمنُ ربَّه في اليوم والليلة، يبحرُ في معانيها، يغوصُ في دقائقِها، يحلِّقُ في أجوائها، يُرطِّبُ قلبَهُ بكلماتِها، يُروِّحُ فؤاده بنسماتِ لطائفها، وهو واقفٌ بين يدي ربه في خشوعٍ، يقرؤها في كلِّ ركعةٍ يصلِّيها، فهي السبعُ المثاني، التي تُثنَّى في كلِّ صلاةٍ، يعاهدُ ربَّه على عبادته وحده والاستعانة به، ويطلب الهداية والاستقامة منه، ليكون أهلا للإنعام، ولأنها سورةُ الصلاة والمناجاة فلقد حسُن استهلالُها بالحمد، وهو خيرُ ما نستهلُّ بها مناجاةَ خالقنا وبارينا، كما حسُن ختامُها بالدعاء. «فأوّل السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة. وحظُّ العبد من النعمة على قدر حظّه من الهداية، وحظّه منها على قدر حظّه من الرحمة، فعاد الأمر كلُّه إلى نعمته ورحمته»[١].

وقد جرت عادة الأدباء والبلغاء تدبيج خطبهم وقصائدهم بقلائد الحمد وأكاليل

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٠).

الثناء بين يدي مطالبهم، إذا وقفوا بين يدي ملوك الدنيا، وغيرهم من العظماء أو الأسخياء، كما قال أحدهم مادحا:

أَأَذْكُرُ حاجتي أم قَدْ كفاني ... حياؤك إن شيمتَك الحياءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يوماً ... كفَاه عن تعرُّضه الثناءُ[1]

فما بالنا ونحن نقف بين يدي ملك الملوك! من بيده خزائن الرحمن، ومقاليد الكون، وميراث السموات والأرض! إن من فضله تعالى ورحمته أن يعلمنا كيف ندعوه ويبصّرنا بخير ما نرجوه.

من هنا فالصلاة لا تتمُّ إلا بها، عن عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ - ثَلاَثًا - غَيْرُ تَمَامٍ»، فَقِيلَ لأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الإِمَامِ؟ فَقَالَ اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ

(١) قالها أميةُ بنُ أبي الصلتِ يمدحُ عبدَ الله بنَ جُدْعان. عيون الأخبار لابن قتيبة (٣/ ١٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأذان- باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها- الحديث ٧٦، ومسلم في الصلاة- باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة- الحديث ٣٩٤.

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[(١)].

فسورة الفاتحة حمد وثناء وتمجيد لله تعالى، ومن ثم فهي مفاتيح تُقضى بها الحاجات، قال عطَاء: «إِذَا أَرَدْتَ حَاجَةً، فَاقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ حَتَّى تَخْتِمَهَا، تُقْضَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ»[(٢)]، «فما قَرَأَ أَحَدٌ الْفَاتِحَةَ لِقَضَاءِ حَاجَةٍ، وَسَأَلَ حَاجَتَهُ، إِلاَّ قُضِيَتْ»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة بَاب وُجُوبِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ وَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُحْسِنْ الْفَاتِحَةَ وَلَا أَمْكَنَهُ تَعَلُّمَهَا قَرَأَ مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا حديث ٩٠٤.

(٢) رواه الإمام المحدث الفقيه يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن ابن عبد الهادي الصالحي، جمال الدين، ابن المبرد الحنبلي (ت: ٩٠٩هـ) الاستعانة بالفاتحة على نجاح الأمور (مطبوع ضمن كتاب جمهرة الأجزاء الحديثية)

(٣) الاستعانة بالفاتحة على نجاح الأمور (ص: ٣٧٢)، وعطاء بن أبي رباح من أئمة التابعين تتلمذ على يد ابن عباس رضي الله عنهما وكان أعلم الناس بفقه الحج ت ١١٤هـ.

قال ابن المبرد الحنبلي الصالحي (ت٩٠٩):

«وَقَدْ شَاهَدْتُ أَنَا مِنْ نَجَاحِ الْأُمُورِ بِهَا أَمْرًا عَظِيمًا، فَقَلَّ حَاجَةٌ مِنَ الْحَوَائِجِ تَعْرِضُ لِي مِنَ الْحَوَائِجِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَالْأُخْرَوِيَّةِ، فَأَقْرَؤُهَا عَلَيْهَا، إِلَّا قُضِيَتْ وَنَجَحَ أَمْرُهَا، وَكَمْ مِنْ حَاجَةٍ تَعَسَّرَتْ وَاسْتَدَّتْ طُرُقُهَا، وَحَالَ دُونَهَا الْمَوَانِعُ، فَقَرَأْتُهَا لِنَجَاحِهَا، فَقُضِيَتْ وَعَادَتْ أَتَمَّ مَا كَانَتْ! وَكَمْ مِنْ أَمْرٍ تَعَسَّرَ، فَقَرَأْتُهَا لَهُ، فَتَقَشَّعَتْ غُيُومُهُ، وَزَالَتْ سُحُبُهُ، وَأَنَارَتْ شُمُوسُهُ!... وَهِيَ سُورَةٌ عَظِيمَةٌ، فَعَلَيْكَ رَحِمَكَ اللَّهُ بِالْإِكْثَارِ مِنْهَا عَلَى أُمُورِكَ، وَحَوَائِجِكَ، وَأَدْوَائِكَ، وَمُهِمَّاتِكَ، وَكُلِّ مَا عَرَضَ لَكَ، وَتَأَمَّلْ ذَلِكَ تَجِدْ مِنْهُ مَا يَظْهَرُ لَكَ. وَهِيَ سُورَةٌ فَضَائِلُهَا كَثِيرَةٌ، وَأَسْرَارُهَا لَا تُحْصَى، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ الْجَوْهَرَ أَرْبَابُهُ، وَالْمَسْكَنَ أَصْحَابُهُ، وَالْمَعْلَمَ طُلَّابُهُ، وَبِاللَّهِ الِاسْتِعَانَةُ، وَهُوَ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ»[١].

ثم تأمل معي أيها القارئ الكريم ذلك الكنز العظيم كيف لو اجتمع أساطين الأدب وعباقرة الفكر، وعلماء النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والقانون وسائر العلماء في كل فنٍّ على أن يضعوا للبشرية نصًّا يناجون به ربهم، يعبِّر عن مشاعرهم وآمالهم، ويطلبون به أسمى ما يتمنون وينهضون به ويرتقون، لما وصلوا لهذه الصياغة القرآنية التي استفتح الله بها كتابه، وفرض قراءتها في كل صلاة لما فيها من خير عظيم ونفع عميم.

(١) الاستعانة بالفاتحة على نجاح الأمور (ص: ٣٧٥).

لماذا سورة الصلاة لماذا تتلى في كل صلاة؟ لأن الإنسان في حاجة دائمة إليها فهي كالزاد الذي لا غنى عنه، وكالدواء الذي لا بديل له، وكالطاقة التي لا بد منها، وكالنور الذي لا مندوحة عنه، إنها غذاء الروح وطاقتها التي تغذيها وتشحذها في كل لحظة،

«طريقة الإسلام في تربية الروح هي أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله، في كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور. إن الإنسان -بطبيعته- قد تشرق روحه لحظة، قد تأخذه روعة الصبح الوليد مرة، وهو يتنفس كمن يصحو من سباته، قد تأخذ بلبّه الليلة المقمرة، فينتشي بشعرها المهموس، وأطيافها، وظلالها المسحورة، قد تأخذه ضخامة الكون وانتظام سننه ودقة نظامه، قد تروعه حادثة مفاجئة فتهز نفسه وتوقظه لعالم الغيب ومدبر الأمور، وكل ذلك جميل، ولكنها لحظات منقطعة لا دوام لها ولا استقرار، لحظات خاطفة لا تلبث -بزوال مؤثرها- أن تزول، والإسلام لا يريد ذلك، لا يريد لهذه الإشراقة الروحية أن تنطفئ، لا يريد لها أن تخنس وتخبو، لا يريد أن يغشى صفاءها شيء أو يحجبها عن انطلاقها في الآفاق، ومن ثم لا يكتفي بتلك اللحظات الفائقة التي تجيء عرضًا ولا تلبث أن تزول، لا تكاد تترك لها أثرًا في النفس، ولا تسيِّرها على منهج واضح أصيل، إنما يريد الإسلام أن يجعل هذه الإشراقة منهج حياة! يريد أن يذكي الشعلة المقدسة فتظل على الدوام مضيئة. يريد أن تظل القبسة التي يشتمل عليها الإنسان من روح الله، مشعشعة واصلة لنبعها الأصيل»[(١)].

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب (١/ ٤٢).

من هنا ندرك لماذا كانت الفاتحة سورة الصلاة؟ لماذا خُصَّت بالتكرار في اليوم والليلة زيادة على العشرين مرة؟ لأن هذه المعاني الجامعة لا بد أن يستحضرها العبد ويستذكرها ويعيشها ليل نهار، فهي دستوره ومنهاجه وهي دليله ونبراسه وهي رسالته وشعاره وهي تاجُه ودِثاره. هي نوره الذي لا يخبو، وعبيره الفواح الذي لا ينقطع عبقُه، هي طاقته المتجددة التي لا يخمدُ وقودُها، هي بوصلته ومعلمه الذي يوجهه نحو الطريق فلا ينحرف لحظةً، هي رقيته التي تدفع عنه كل داءٍ، هي مشفاه ومصحّته التي تذهب عنه كل علة أو وهن، فيظل قويًّا فتيًّا، نشيطًا مقبِلا، طيّب النفس، مطمئن القلب.

عندما تزور جامعة أو تدلف إلى أروقة معهد تستقبلك لافتات مكتوب عليها رسالة الجامعة وأهدافها، للتعرف عليها وإدراك مزيّتها وتميُّزها عن غيرها من الجامعات، وليستحضرها الأساتذة والطلاب والعاملون فهي دستورهم ونبراسهم، كذلك سورة الفاتحة هي موجز رسالة الإسلام وملخصُ منهجه ونبراسُ حياة كل مسلم يرددُها في سائر الأوقات ليستلهمَ منها رشدَه ويضبطَ على ميزانها ونبراسها سيرَه وسلوكه ويقوِّم ذاته ويزكّي نفسه، ويجدد إيمانه، ويحدّد غايته ويوجِّه بوصلته الوجهة الصحيحة.

سورة الصلاة تعني أن نحرص على الصلوات في جماعة حتى ننعم بتدبرها بإمعانٍ، وحضور الملائكة وتأمينهم في الصلوات المشهودة، وأجواء الجماعة التي تحلق بنا في رحاب الفاتحة في سمو وجلال، يتناسب مع عظمة الفاتحة، فضلا عن صلاة التطوع،

وقيام الليل، قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

رابعًا: سورة الشفاء والرقية

القرآن كله شفاء، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال جل وعلا: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال جل وعلا عن كتابه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ [فصلت: ٤٤].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «الْقُرْآنُ مَأْدُبَةُ اللَّهِ، فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَأْدُبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ، لا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، وَلا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ»(١).

لقد اشتملت سورة الفاتحة على أعظم ترياقٍ؛ ففيها تعظيمُ الله ومحبتُه، وقد جمعت بين الرهبة والرغبة، وامتزجت فيها حرارةُ الخوف مع نسيم الرجاء، وانسجم دفءُ الإيمان مع بردِ اليقين، وتعانقَ إخلاص العبادة مع تمحيض الاستعانة، واجتمع طلبُ التأسي بالسعداء المهتدين، مع التبرّي من الأشقياء الضالين، فكان للفاتحة تأثيرها العميق في تزكية النفوس وشفاء الأرواح وعافية الأبدان. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا فَنَزَلْنَا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمٌ، وَإِنَّ نَفَرَنَا غَيْبٌ فَهَلْ مِنْكُمْ

(١) فضائل القرآن وتلاوته للرازي (ص: ٧٥).

رَاقٍ؟ فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مَا كُنَّا نَأْبُنُهُ بِرُقْيَةٍ فَرَقَاهُ فَبَرَأَ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ شَاةً وَسَقَانَا لَبَنًا، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً أَوْكُنْتَ تَرْقِي؟ قَالَ لَا مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِأُمِّ الْكِتَابِ، قُلْنَا: لَا تُحْدِثُوا شَيْئًا حَتَّى نَأْتِيَ أَوْ نَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ! اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ»[(١)].

فهي سورة الصلاة وسورة الرقية والشفاء، تغمرُ صاحبَها بالسكينة وتغشاه بالطمأنينة، حين يلهج لسانُه بحمدِ من تفرَّد بالحمد، ويجري على لسانه أسماء الله الحسنى التي تملأ القلب يقينا وثباتا، وخشوعا وإجلالا وتعظيما، ومحبةً ورجاءً. فمالك يوم الدين هو الذي وسعت رحمته كل شيء، باستحضار ذلك يطمئن العبدُ على حاضره ومستقبله، وتقرُّ عينُه وينشرحُ صدرُه ويسكنُ فؤادُه، وهي سورةُ الشفاء فيها استحضارٌ لعظمة الله ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، واستمطارٌ لرحمته ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والخشوع له ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والتماس العون منه وحده ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وطلب الهداية منه، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، ومدح أهل الاستقامة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وذم وإقصاء أهل الزيغ والانحراف ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وحضور الملائكة عند التأمين،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كِتَاب الطِّبِّ بَاب الرُّقَى بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ حديث ٤٦٢٣، ورواه مسلم في صحيحه كِتَاب السَّلَامِ بَاب جَوَازِ أَخْذِ الْأُجْرَةِ عَلَى الرُّقْيَةِ بِالْقُرْآنِ وَالْأَذْكَارِ حديث ٤٠٨٠. قال الإمام النووي: «قَوْله: (مَا كُنَّا نَأْبِنُهُ بِرُقْيَةٍ): هُوَ بِكَسْرِ الْبَاء وَضَمّهَا أَيْ نَظُنّهُ. وَاللَّهُ أَعْلَم». شرح النووي على صحيح مسلم ٧ / ٣٤٠. وسليم أي لديغ.

وهذا يعني إقصاء وقمع الشياطين، من هنا تتبين لنا خصوصية هذه السورة في الرقية والشفاء، والقرآن كلُّه شفاءٌ وترياق.

قال ابن تيمية رحمه الله: «القلب لا يصلح ولا يفلح ولا يُسَرُّ ولا يلتذُّ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه. ولو حصل له كلُّ ما يلتذُّ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكُن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه. وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة. وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له ولا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾. فهو مفتقر إليه من حيث هو المطلوب المحبوب المعبود ومن حيث هو المستعان به المتوكل عليه. فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه لا رب له سواه، ولا تتم عبوديته إلا بهذين»[(١)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وَقَدْ قِيلَ إِنّ مَوْضِعَ الرّقْيَةِ مِنْهَا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ وَلَا رَيْبَ أَنّ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ مِنْ أَقْوَى أَجْزَاءِ هَذَا الدّوَاءِ؛ فَإِنّ فِيهِمَا مِنْ عُمُومِ التّفْوِيضِ وَالتّوَكّلِ وَالِالْتِجَاءِ وَالِاسْتِعَانَةِ وَالِافْتِقَارِ وَالطّلَبِ وَالْجَمْعِ بَيْنَ أَعْلَى الْغَايَاتِ وَهِيَ عِبَادَةُ الرَّبّ وَحْدَهُ، وَأَشْرَف الْوَسَائِلِ وَهِيَ الِاسْتِعَانَةُ بِهِ عَلَى عِبَادَتِهِ مَا لَيْسَ فِي

(١) العبودية (ص: ٩٧).

غَيْرِهَا، وَلَقَدْ مَرَّ بِي وَقْتٌ بِمَكَّةَ سَقِمْتُ فِيهِ وَفَقَدْتُ الطَّبِيبَ وَالدَّوَاءَ، فَكُنْت أَتَعَالَجُ بِهَا آخُذُ شَرْبَةً مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ وَأَقْرَؤُهَا عَلَيْهَا مِرَارًا، ثُمّ أَشْرَبُهُ فَوَجَدْتُ بِذَلِكَ الْبُرْءَ التَّامَّ، ثُمّ صِرْت أَعْتَمِدُ ذَلِكَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ الْأَوْجَاعِ فَأَنْتَفِعُ بِهَا غَايَةَ الِانْتِفَاعِ »[١].

وقال أيضا: «وأما شهادة التجارب بذلك فهي أكثر من أن تُذكر، وذلك في كل زمان، وقد جرَّبت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أمورا عجيبة ولا سيَّما مدة المقام بمكة، فإنه كان يعرض لي آلامٌ مزعجةٌ بحيث تكاد تقطع الحركة مني وذلك في أثناء الطواف وغيره، فأبادر إلى قراءة الفاتحة وأمسحُ بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط، جرّبتُ ذلك مرارا عديدة، وكنتُ آخذُ قدحا من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مرارا فأشربه فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء، والأمر أعظم من ذلك، ولكن بحسب قوة الإيمان وصحة اليقين، والله المستعان»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه: «تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»[٣].

فسورة الفاتحة شفاء للأبدان وشفاء للأرواح، شفاء من أمراض البدن وأمراض القلب، شفاء من مرض الشهوات والشبهات؛ بما تثمره من تزكية النفس والنهوض بها وتبصير

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (٤ / ١٦٢).
(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١ / ٥٧).
(٣) نفس المرجع (١ / ٧٨).

القلوب وتجليتها، وتنوير البصائر وجلائها: «وَتَاللَّهِ لَا تَجِدُ مَقَالَةً فَاسِدَةً، وَلَا بِدْعَةً بَاطِلَةً، إِلَّا وَفَاتِحَةُ الْكِتَابِ مُتَضَمِّنَةٌ لِرَدِّهَا، وَإِبْطَالِهَا بِأَقْرَبِ طَرِيقٍ وَأَصَحِّهَا، وَأَوْضَحِهَا، وَلَا تَجِدُ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ، وَأَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَأَدْوِيَتِهَا مِنْ عِلَلِهَا، وَأَسْقَامِهَا، إِلَّا وَفِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ مِفْتَاحُهُ، وَمَوْضِعُ الدِّلَالَةِ عَلَيْهِ، وَلَا مَنْزِلًا مِنْ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِلَّا وَبِدَايَتُهُ وَنِهَايَتُهُ فِيهَا... وَلَعَمْرُ اللَّهِ، إِنَّ شَأْنَهَا لَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَهِيَ فَوْقَ ذَلِكَ، وَمَا تَحَصَّنَ عَبْدٌ وَاعْتَصَمَ بِهَا، وَعَقَلَ عَمَّنْ تَكَلَّمَ بِهَا، وَأَنْزَلَهَا شِفَاءً تَامًّا، وَعِصْمَةً بَالِغَةً، وَنُورًا مُبِينًا، وَفَهِمَهَا وَفَهِمَ لَوَازِمَهَا كَمَا يَنْبَغِي، وَوَقَعَ فِي بِدْعَةٍ وَلَا شِرْكٍ، وَلَا أَصَابَهُ مَرَضٌ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ، إِلَّا لِمَامًا غَيْرَ مُسْتَقِرٍّ. قال الشَّيْخُ نُورُ الدِّينِ الْخَلِيلِيُّ: وَمَنْ سَاعَدَهُ التَّوْفِيقُ، وَأُعِينَ بِنُورِ الْبَصِيرَةِ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى أَسْرَارِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَمَعْرِفَةِ الذَّاتِ، وَالْأَسْمَاءِ، وَالصِّفَاتِ، وَالْأَفْعَالِ، وَإِثْبَاتِ الشَّرْعِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالْمَعَادِ، وَتَجْرِيدِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْإِلَهِيَّةِ، وَكَمَالِ التَّوَكُّلِ، وَالتَّفْوِيضِ إِلَى مَنْ لَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَلَهُ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَبِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَالِافْتِقَارُ إِلَيْهِ فِي طَلَبِ الْهِدَايَةِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ، وَعَلِمَ ارْتِبَاطَ مَعَانِيهَا بِجَلْبِ مَصَالِحِهَا، وَدَفْعِ مَفَاسِدِهَا، فَإِنَّ الْعَافِيَةَ الْمُطْلَقَةَ التَّامَّةَ، وَالنِّعْمَةَ الْكَامِلَةَ مَنُوطَةٌ بِهَا، مَوْقُوفَةٌ عَلَى التَّحْقِيقِ بِهَا، أَغْنَتْهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَدْوِيَةِ وَالرُّقَى، وَاسْتَفْتَحَ بِهَا مِنَ الْخَيْرِ أَبْوَابَهُ، وَدَفَعَ بِهَا مِنَ الشَّرِّ أَسْبَابَهُ، قَالَ: وَهَذَا أَمْرٌ يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِحْدَاثِ فِطْرَةٍ أُخْرَى، وَعَقْلٍ آخَرَ، وَإِيمَانٍ آخَرَ»[(١)].

(١) الاستعانة بالفاتحة على نجاح الأمور، يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن بن عبد الهادي الصالحي، جمال الدين، ابن المبرد الحنبلي (المتوفى: ٩٠٩هـ) (ص: ٣٧٣).

خامسا: نورٌ أوتيه نبيُّنا لم يؤته أحدٌ من قبله

تدلُّ أوصافُ السورة وفضائلها على مقصودِها: فهي نورٌ يضيء لنا معالم الطريق إلى الله، نورٌ لقلوبنا وبصائرنا، نورٌ للأذهان، نورٌ يزيدُنا هُدًى وبصيرةً، نورٌ يُزيِّنُ حياتنا، نورٌ ما أشدَّ حاجتنا إليه في خضمِّ الفتن التي تحيطُ بنا، نورٌ نمشي به في الناس، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

«بَيْنَمَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسه، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ»[(١)].

فإذا قام العبدُ للصلاة مستحضرا عظمةَ هذه السورة الكريمة وفضائلها، مع جلالِ ورهبة الوقوف بين يدي ربه وحلاوة ولذة مناجاته، كان حريًّا بتدبر معانيها والغوص في دقائقها واجتلاء أنوارها وجني ثمارها، فيقبل القلب على معاني القرآن، يكرع من حياضه، ويرتع في رياضه، ويشاهد عجائبه المبهرة، ويستخرج من كنوزه وذخائره ما لا يخطر ببال.

(١) رواه مسلم في صحيحه كِتَاب صَلاَةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا. بَاب فَضْلِ الْفَاتِحَةِ وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالْحَثِّ عَلَى قِرَاءَةِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ الْبَقَرَةِ حديث ١٩١٣.

باب يفتح للمساء، لم يفتح قبل، وملك كريم ينزل لم ينزل قط، وبشارة عظيمة، وتنويه بكون الفاتحة نورا، وعطاء غير مسبوق، وأنها دعاء مستجابٌ لمن دعا بحقٍّ، كل هذا يحفزنا على تدبر السورة الكريمة عند قراءتها أو سماعها. هذا المشهد العظيم، بابٌ يفتح، ملكٌ ينزل، وجبريل حاضرٌ يستقبل، ونبي الله يترقّب، تنويهٌ بفضل السورة الكريمة، فضلا عن خواتيم سورة البقرة.

سورة الفاتحة نور، لما اشتملت عليه من أصول الدين، ولما حوته من معاني الإسلام والإيمان والإحسان. وكذا خواتيم سورة البقرة.

ألا فما أكثر الظلمات المحيِّرة في دنيانا، سيَّما في عصرنا، ظلمة الهوى وظلمة الشهوات وظلام الأباطيل والشبهات، فما أحوجنا دائما إلى اقتباسِ النورِ الذي يبدِّدُ تلك الظلمات، ويضيءُ لنا الطريق، والقرآنُ كلُّهُ نورٌ وعصمةٌ، قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [التغابن: ٨]، ما أحوجنا ونحن نخالط الناس أن نمضي على بصيرة، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وهذه السورة وخواتيم سورة البقرة من أعظم الأنوار القرآنية التي تنقشع أمامها الظُّلم.

فما أحوج الأمة إلى أن تستنير بهذا النور الحقيقي لا بأنوار الشرق والغرب ولا بأضواء الشمال، التي تبهر الأبصار لكنها سرعان ما تنقشع وتتلاشى، وصدق أمير الشعراء حين

قال، مخاطبًا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، معبرًا عن حال أمة الإسلام:

شُعُوبُكَ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا
كَأَصْحَابِ كَهْفٍ فِي عَمِيقِ سُبَاتِ

بِأَيْمَانِهِمْ نُورَانِ ذِكْرٌ وَسُنَّةٌ
فَمَا بَالُهُمْ فِي حَالِكِ الظّلماتِ !

الفَصْلُ الثَّانِي

خَرِيطَةُ الكَنْزِ

كَيْفَ نَتَدَبَّرُ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ؟

أولا: استشعار أهمية التدبر

فقد أضاع كثير من الناس فريضة التدبر وأغفلوا أهميته، حتى صار همُّ القارئ أن يختم السورة ويصل لآخرها دون أن يرتشف من عذبها، ويقتطف من ثمارها ويشتمّ رياحينها، ويستروح ظلالها، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، إن تدبر القرآن يجعلنا نتذوق هذا الجمال، وندرك تآخي المعاني، وتوافق الأساليب، وتشابه الأغراض، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، فلا يتدبر القرآن إلا قلب متفتح لأنواره، وصدر منشرح لمعانيه وأسراره.

الأسباب المعينة على تدبر السورة:

1. استشعار أهمية التدبر.
2. الاستعانة بالله تعالى على فهم كتابه.
3. الاقتداء والتأسي بنبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسلفنا الصالح في تدبرهم.
4. استشعار عظمة هذه السورة الكريمة.
5. حضور القلب.
6. معايشة القرآن الكريم.
7. التدبر العام للقرآن.
8. رياضة النفس وتعويدها على تدبر سورة الفاتحة:
9. التعمق في فهم الواقع والحياة ودراسة التاريخ.
10. الحرص على صلاة الجماعة.

والتدبر يقوي القلب ويثبته، والتدبُّر عصمة من الفتن وحرز من المخاوف وأمان من الشدائد، فوق ما يبرزه لنا من عظمة القرآن وإعجازه.

قَالَ الآجُرّي: «وَمَنْ تَدَبَّرَ كَلامَهُ عَرَفَ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ، وَعَرَفَ عَظِيمَ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَعَرَفَ عَظِيمَ تَفَضُّلِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَعَرَفَ مَا عَلَيْهِ مِنْ فَرْضِ عِبَادَتِهِ، فَأَلْزَمَ نَفْسَهُ الْوَاجِبَ، فَحَذِرَ مِمَّا حَذَّرَهُ مَوْلاهُ الْكَرِيْمُ، وَرَغِبَ فِيمَا رَغَّبَهُ فِيهِ، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ عِنْدَ تِلاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ، وَعِنْدَ اسْتِمَاعِهِ مِنْ غَيْرِهِ، كَانَ الْقُرْآنُ لَهُ شِفَاءً، فَاسْتَغْنَى بِلا مَالٍ، وَعَزَّ بِلا عَشِيرَةٍ، وأَنِسَ بِمَا يَسْتَوحِشُ مِنْهُ غَيْرُهُ»[(١)].

وقال الغزالي:

«... فَلَا يُوجَدُ أَنْفَعُ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بالتفكر فإنه جَامِعٌ لِجَمِيعِ الْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ وَفِيهِ شِفَاءٌ لِلْعَالَمِينَ، وفيه مَا يُورِثُ الْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ وَالصَّبْرَ وَالشُّكْرَ وَالْمَحَبَّةَ وَالشَّوْقَ وَسَائِرَ الْأَحْوَالِ، وَفِيهِ مَا يَزْجُرُ عَنْ سَائِرِ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَقْرَأَهُ الْعَبْدُ وَيُرَدِّدَ الْآيَةَ الَّتِي هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى التَّفَكُّرِ فِيهَا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَلَوْ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ فَقِرَاءَةُ آيَةٍ بِتَفَكُّرٍ وَفَهْمٍ خَيْرٌ مِنْ خَتْمَةٍ بِغَيْرِ تَدَبُّرٍ وَفَهْمٍ؛ فَلْيَتَوَقَّفْ فِي التَّأَمُّلِ فِيهَا وَلَوْ لَيْلَةً وَاحِدَةً فَإِنَّ تَحْتَ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا أَسْرَارًا لَا تَنْحَصِرُ وَلَا يُوقَفُ عَلَيْهَا إِلَّا بِدَقِيقِ الْفِكْرِ عَنْ صَفَاءِ الْقَلْبِ بَعْدَ صِدْقِ الْمُعَامَلَةِ»[(٢)].

وقد أُثر عن بعض الصالحين أنه كان يقوم الليل كله مرددًا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وبعضهم خُتم له وهو يرددها، حتى كانت آخر كلامه مع آخر أنفاسه.

---

(١) أخلاق حملة القرآن للآجري (ص٣).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٣١).

ثانيا: الاستعانة بالله تعالى على فهم كتابه

التدبُّر توفيقٌ من الله تعالى للعبد، يفتح قلبه لكلامه فيعقله ويتفهّمه ويعيشُهُ نصًّا وواقعا.

إن أول ما نقوم به عند قراءة القرآن الاستعاذة بالله تعالى من الشيطان، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] فالشياطين تسعى لحجب أنوار القرآن كيلا تشرق على قلب العبد، وتحوم حوله لتحرمه من تلك الكنوز التي بها سعادة دنياه وأخراه، قال الحارثُ المحاسِبيُّ رحمه اللهُ:

«فإن طلبت الفهم بصدقٍ أقبل عليك بالمعونة..لا يَثقُل فهم كلامه إلا على من تعطل قلبه ألا يسمع..فإن علم سبحانه من التالي لكتابه صدق ضمير، وعناية حتى يجمع همه للفهم، أفهمه.. ألا تسمعه يقول: ﴿يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٧٠]، فإذا أقبلتَ على اللهِ تعالى بصدقِ نيةٍ ورغبةٍ لفهمِ كتابِهِ باجتماعِ هَمٍّ مُتَوَكِّلًا عليهِ أَنَّهُ هُوَ الذي يفتحُ لك الفهمَ لا على نفسِكَ فيما تطلبُ ولا بما لَزِمَ قلبَكَ مِنَ الذكرِ لم يخيبْك من الفهمِ والعقلِ عنه إنْ شاءَ اللهُ»[١].

وقال سبحانه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، ومن أجلِّ الرحمات وأطيبِ النَّفَحَاتِ: أن يفتحَ

(١) فهمُ القرآنِ ومعانيهِ لأبي عبدِ الله الحارثِ بن أسدِ المحاسبيِّ ص ٢٧١

اللهُ سبحانه على عبادِهِ بفهمِ كتابِهِ، قال تعالى في نفس السورة: ﴿أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، فمن فضلِ الله ونعمتِهِ على من اصطفاه من عباده أن أورثهم كتابه، يتلونه حقَّ تلاوته، ويتدبرونه أحسن تدبُّرِه، ويعملون به على الوجهِ الذي يرضيه، ويدعون إلى العملِ به.

وفي البسملة استعانة بالله تعالى، واستصحاب لمعيته، والتماس لرعايته، وإعلان عن إخلاص النية له، ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وفيها استمطار لرحمة الله تعالى، فالاستعاذة والبسملة تخلية وتحلية، دفع للمكروه، وطلب للمرغوب، وفيهما تهيئة للنفس وتحفيز وتنشيط على تدبر القراءة.

ثالثا: الاقتداء والتأسي بنبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وسلفنا الصالح في تدبرهم

فلقد علمنا نبيُّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كيف نتدبر القرآن كيف نعايشه تلاوة وعملا كيف نحيا به ونتخلق بأخلاقه ونتأدب بآدابه، وسنته صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هي الترجمة الواقعية والصورة العملية لكتاب الله تعالى كما تحكي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمن سأل عن خلق النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال بلى، قالت: «فَإِنّ خُلُقَ نَبِيّ اللّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الْقُرْآنُ»[(١)]، وصدق ربنا إذ يقول: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ

(١) رواه مسلم في صحيحه، صَلاَةِ الْمُسَافِرِينَ بَابُ جَامِعِ صَلاَةِ اللَّيْلِ (١/ ٥١٢) ١٣٩- (٧٤٦).

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١].

التأسي بالسلف: «فلقد كانت الآيات تتنزَّلُ في أمورٍ باشرُوها بأيديهم أو أبصرُوها بأعينِهِم، أو خاضوا غِمَارَها فعاشوا حُلْوَهَا وَمُرَّهَا، وَفَرَحَهَا وَحُزْنَهَا، وكابدوا معاناتِهَا، وأدركوا ملابساتِهَا، فكانت الآياتُ تقعُ في قلوبهم مواقِعَهَا، فعنها يَصْدُرُون، وإليها يَرِدُون ورودَ الظامئ إلى الماءِ البارِدِ»[1].

إن كنوز القرآن الكريم لن يصل إليها ولن يستلم مفاتحها ولن تتفتح إلا لمن قرأ القرآن بنية العملِ؛ فاعتبره أوامر من ربِّه واجبة النفاذِ.

لقد «عرف سلفنا الصالح رضوان الله عليهم فضل القرآن وتلاوته، فجعلوه مصدر تشريعهم، ودستور أحكامهم، وربيع قلوبهم، وورد عبادتهم، وفتحوا له قلوبهم وتدبروه بأفئدتهم، وتشربت معانيه السامية أرواحهم، فأثابهم الله في الدنيا سيادة العالم، ولهم في الآخرة عظيم الدرجات، وأهملنا القرآن فوصلنا إلى ما وصلنا إليه من ضعف في الدنيا ورقة في الدين»[2].

«إنهم - في الجيل الأول - لم يكونوا يقرؤون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التشوق والمتاع، لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد

(١) تدبر القرآن، تأليف سلمان بن عمر السنيدي ص ٩٧.

(٢) إنه القرآن سر نهضتنا - كيف يمكن للقرآن أن ينهض بالأمة؟ د مجدي هلالي (ص: ٤٧)

الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جُعْبَتَهُ. إنما كان يتلقى القرآنَ ليتلقى أمرَ الله في خاصةِ شأنِهِ وشأنِ الجماعةِ التي يعيشُ فيها، وشأنِ الحياةِ التي يحيا بها هو وجماعتُهُ ... هذا الشعورُ... شعورُ التلقي للتنفيذِ... كان يفتح لهم من القرآن آفاقًا من المتاع وآفاقًا من المعرفة... إن هذا القرآن لا يمنحُ كنوزَهُ إلا لمن يُقبل عليه بهذه الروحِ: روحِ المعرفةِ المنشئةِ للعملِ...»[(١)].

ومن المواقف المشهودة في تدبر الفاتحة ومعايشتها من حياة سلفنا الصالح وعلماء الأمة العظام كيف كان بعضهم يكثر من ترديدها في قيامه، بل ربما يقوم بها، فعن محمد بن عوف الحِمْصِيُّ: رأيتُ أحمد بن أبي الحواريِّ رحمه الله عندنا بأَنْطَرسُوس، فلما صلّى العَتَمَة قام يُصلِّي، فاستفتح بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فطُفْت الحائط كلَّه، ثم رجعتُ، فإذا هو لا يجاوزُها ثم نمتُ، ومررت في السَّحَرِ، وهو يقرأ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فلم يزل يُرَدِّدُها إلى الصبح[(٢)].

وخُتم لبعضهم بينما كان يرددُها حتى فاضت روحه الطاهرة، فذكروا في ترجمة الْإِسْمَاعِيلِيّ الْفَقِيه الشَّافِعِي شيخ الشَّافِعِيَّة بجرجان:

(١) معالم في الطريق، تحت عنوان جيل قرآني فريد ص ٨ بتصرف.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٧١/ ٢٤٨). وأنطرسوس كما في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (٢/ ٦٤٤) «على ضفة البحر صغيرة القدر بها أسواق عامرة وتجارات دائرة القرى». البحر المتوسط على الساحل قريبا من اللاذقية.

وَمِمَّا أكْرمه الله بِهِ أَن مَاتَ وَهُوَ فِي صَلَاة الْمغرب يقْرَأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فَفَاضَتْ نَفسه[(١)].

وكذلك الشيخ علي بن عطية بن الحسن بن محمد بن الحداد الحموي الشيخ الإمام العلامة، الهمام الفهامة، شيخ الفقهاء والأصوليين يقول ولده: «في يوم موته طلب أن يتيمم، ثم دخل في الصلاة، فبينما هو عند قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إذ خرجت روحه أو وصلت إلى الغرغرة»[(٢)].

فانظر كيف كان مسك ختامهم بأطيب كلام وأعظم سورة في أعظم كتاب !

رابعا: استشعار عظمة هذه السورة الكريمة

فالقرآن العظيم كل ما فيه يشهد بعظمة منزّله، وهذه السورة أعظم سوره لما اشتملت عليه من معانٍ جامعة، فاستشعار العبد لعظمة هذه السورة وخواصِّها وفضائلها وتأثيرها العجيب مما يقوي عزمه ويجمع قلبه على تدبرها ومعايشة معانيها. لا تجد في كتاب الله سورة ورد في شأنها هذا القدر العظيم من الفضائل والمزايا؛ بما يؤكد على أهميتها وتفرُّدها، ويحفز على تدبرها.

(١) إِسْمَاعِيل بن أَحْمد بن إِبْرَاهِيم بن إِسْمَاعِيل بن الْعَبَّاس الْعَلامَة أَبُو سعد بن أبي بكر الْإِسْمَاعِيلِّي، صنف فِي أصُول الْفِقْه كتابا كَبِيرا. وَوَثَّقَهُ الْخَطِيب، توفّي لَيْلَة الْجُمُعَة نصف شهر ربيع الآخر سنة سِتّ وَتِسْعين وثلاثمائة. سير أعلام النبلاء (١٦/ ٢٩٢).

(٢) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٢/ ٢١٠).

قال ابن القيِّم رحمه الله:

«وتالله لا تجد مقالةً فاسدةً ولا بدعةً باطلةً إلاّ وفاتحةُ الكتاب متضمّنةٌ لردّها وإبطالها بأقرب الطرق وأصحّها وأوضحِها، ولا تجدُ باباً من أبواب المعارف الإلهية وأعمال القلوب وأدويتها من عللها وأسقامها إلاّ وفي فاتحة الكتاب مفتاحه وموضع الدِّلالة عليه، ولا منزلاً من منازل السائرين إلى ربّ العالمين إلاّ وبدايته ونهايته فيها، ولَعَمْرُ اللهِ إنَّ شأنَها لأعظمُ من ذلك، وهي فوق ذلك، وما تحقّق عبدٌ بها واعتصم بها وعقل عمّن تكلّم بها، وأنزلها شفاءً تاماًّ، وعصمةً بالغةً، ونورًا مبينًا، وفهمها وفهم لوازمها كما ينبغي ووَقَع في بدعةٍ ولا شركٍ ولا أصابه مرضٌ من أمراض القلوب إلاّ لماماً غير مستقرّ»[١].

وقال الشيخ عبد الرزاق البدر بعد إيراد جملة من الأحاديث والآثار في فضائل الفاتحة: «ومن هنا فإنَّه يتأكّد على كلّ مسلم أن تعظم عنايته بهذه السورة الكريمة حفظًا وتلاوةً ومدارسةً وتدبُّرًا، فالمسلم يقرؤها في الصلاة المكتوبة في اليوم والليلة سبع عشرة مرّة، وإذا كان محافظًا على النّوافل أو على كثيرٍ منها فإنَّه يقرؤها مرّات كثيرة، لا يحصيها مدّة عمره وطول حياته إلاّ اللهُ تبارك وتعالى، ومن أسفٍ أنَّك ترى مع ذلك في فقه الأدعية والأذكار بعض المسلمين من لا يحسن قراءة هذه السورة الكريمة، بل

(١) زاد المعاد (٤/٣٤٧ ٣٤٨).

لربّما يلحن فيها لحنًا يفسد معناها، أو يخلُّ بمدلولها، أو ترى فيهم من لا يُعْنَى بتدبّرها وتفهُّمِها وتعقُّل معانيها ومعرفة مدلولاتها. والواجب من عباد الله المؤمنين كلِّهم تعظيمُ هذه السورة الكريمة وقدرُها حقّ قدرها، وتلاوتُها حقّ تلاوتها؛ إذ هي أعظم سُوَر القرآن وأفرضُها على الأمّة، وأجمعُها لكلِّ ما يحتاج إليه العبد، وأعمُّها نفعاً»[١].

والسورة في أسلوبها فضلا عن مضمونها تعظيم لله جل وعلا كما ذكر علماء البيان: جاء في المثل السائر:

«وهذه السورة قد انتقل في أولها من الغيبة إلى الخطاب، لتعظيم شأن المخاطب، ثم انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة، لتلك العلة بعينها، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضا؛ لأن مخاطبة الرب تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه»[٢].

خامسا: حضور القلب

فكلما تفرَّغَ القلبُ من همومِ الدنيا ومشاغِلِهَا، وجعل الآخرةَ همَّه وشُغلَه كلما تَجَلَّتْ له دقائق المعاني وأقبلتْ عليه اللطائفُ وَلاحت له الفوائدُ.

قال الإمام الآجرِيُّ رحمه الله: «وإذا دَرَسَ القرآنَ فَبِحُضُورٍ وَفَهْمٍ وعقلٍ، هِمَّتُهُ إيقاعُ

(١) فقه الأدعية والأذكار، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، أستاذ بالجامعة الإسلامية (١ / ٨٨).
(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢ / ١٣٨).

الفهمِ لما ألزمه اللهُ من اتباعِ ما أمرَ والانتهاءِ عما نهى عنه وَزَجَرَ»[١].

وفي هذا المعنى يقول عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لو أن قلوبَنَا طَهُرَتْ ما شَبِعْنَا من كلامِ ربِّنا، و إني لأكرهُ أن يأتيَ عليَّ يومٌ لا أنظرُ في المصحفِ»[٢]، ولقد استُشهد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ والمصحفُ بين يديه، فكان آخرَ عهدِهِ في الدنيا.

وقال ابن القيم رحمه الله:

«قاعدة جليلة: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوتِهِ وسماعه، وأَلْقِ سمعَك واحضُرْ حضورَ من يخاطبُهُ بِهِ من تكلَّم به سبحانه منه إليه؛ فإنه خطابٌ منه لك على لسانِ رسولِهِ»[٣].

وقال الغزالي في الإحياء: «... فَإِذَا قُلْتَ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فَانْوِ بِهِ التَّبَرُّكَ لِابْتِدَاءِ الْقِرَاءَةِ لِكَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَافْهَمْ أَنَّ مَعْنَاهَا أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَإِذَا كَانَتِ الْأُمُورُ بِهِ تَعَالَى فَلَا جَرَمَ كَانَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وَمَعْنَاهُ أَنَّ الشُّكْرَ لِلَّهِ إِذِ النِّعَمُ مِنَ اللَّهِ، وَمَنْ يَرَى مِنْ غَيْرِ اللَّهِ نِعْمَةً أَوْ يَقْصِدُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِشُكْرِهِ لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مُسَخَّرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَفِي تَسْمِيَتِهِ وَتَحْمِيدِهِ نُقْصَانٌ بِقَدْرِ الْتِفَاتِهِ إِلَى غَيْرِ

(١) أخلاق حملة القرآن للآجري ٤٠ بتصرف.

(٢) شعب الإيمان، للبيهقي ٢/ ٤٠٩. وحلية الأولياء لأبي نعيم ٧/ ٢٧٢ والزهد لابن المبارك ص ٣٩٩.

(٣) الفوائد، لابن القيم ص ٣.

اللَّهِ تَعَالَى. فَإِذَا قُلْتَ: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فَأَحْضِرْ فِي قَلْبِكَ جَمِيعَ أَنْوَاعِ لُطْفِهِ لِتَتَّضِحَ لَكَ رَحْمَتُهُ فَيَنْبَعِث بِهِ رَجَاؤُكَ، ثُمَّ اسْتَثِرْ مِنْ قَلْبِكَ التَّعْظِيمَ وَالْخَوْفَ بِقَوْلِكَ: ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، أَمَّا الْعَظَمَةُ فَلِأَنَّهُ لَا مُلْكَ إِلَّا لَهُ، وَأَمَّا الْخَوْفُ فَلِهَوْلِ يَوْمِ الْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ الَّذِي هُوَ مَالِكُهُ، ثُمَّ جَدِّدِ الْإِخْلَاصَ بِقَوْلِكَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ وَجَدِّدِ الْعَجْزَ وَالِاحْتِيَاجَ وَالتَّبَرُّؤَ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ بِقَوْلِكَ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وَتَحَقَّقْ أَنَّهُ مَا تَيَسَّرَتْ طَاعَتُكَ إِلَّا بِإِعَانَتِهِ، وَأَنَّ لَهُ الْمِنَّةَ إِذْ وَفَّقَكَ لِطَاعَتِهِ. ثُمَّ عَيِّنْ سُؤَالَكَ وَلَا تَطْلُبْ إِلَّا أَهَمَّ حَاجَتِكَ وَقُلْ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الَّذِي يَسُوقُنَا إِلَى جِوَارِكَ وَيُفْضِي بِنَا إِلَى مَرْضَاتِكَ، وَزِدْهُ شَرْحًا وَتَفْصِيلًا وَتَأْكِيدًا وَاسْتِشْهَادًا بِالَّذِينَ أَفَاضَ عَلَيْهِمْ نِعْمَةَ الْهِدَايَةِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ دُونَ الَّذِينَ غَضِبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَالزَّائِغِينَ. ثُمَّ الْتَمِسِ الْإِجَابَةَ وَقُلْ: آمِينَ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ حَظٌّ سِوَى ذِكْرِ اللَّهِ فِي جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ فَنَاهِيكَ بِذَلِكَ غَنِيمَةً، فَكَيْفَ بِمَا تَرْجُوهُ مِنْ ثَوَابِهِ وَفَضْلِهِ»[1].

والفاتحة دعاء كما في حديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل»[2]، والدعاء يستلزم حضور قلب، فلا يقبل من قلب غافل لاهٍ، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون

(١) إحياء علوم الدين (١/ ١٦٧).

(٢) سبق تخريجه.

بالإجابة، واعلموا أنَّ الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ»[(١)] . فيقين العبد بربه وثقته في وعده وقوة رجائه وطمعه مما يحقق المأمول، فعلى قارئ الفاتحة أن يقرأها قراءة المتحقق من الإجابة والقبول.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي:

«إن القرآن الكريم لا يفتح باب فهمه الأصيل إلا إذا خاطب الإنسان بهذا القرآن صاحب القرآن - جل جلاله - بدون حجاب ولا ستار، وطريق ذلك كثرة التلاوة للقرآن الكريم والاهتمام بالنوافل، ومجالسة عباد الله الصالحين المتذوقين للذة القرآن الحقيقية، الذين خالط الكلام الإلهي شغاف قلوبهم، وسيطر على عقولهم وشعورهم، وجرى حبُّه وتأثيره فيهم مجرى الروح والدم. فالحاجة ماسّة إلى أن يتعرف القارئ لهذا الكتاب الإلهي تعرفا مباشرا ويستأنس به ويشغف به ويشعر كأنه المخاطب بالذات من منزِّل الكتاب سبحانه»[(٢)] .

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: أيها المصلي ادع تجب، ٥/ ٥١٧، رقم ٣٤٧٩، وقال الألباني: حديث حسن، انظر: صحيح سنن الترمذي، الألباني ص ٧٩٠، رقم ٣٤٧٩.

(٢) قصة دراستي للقرآن تأليف أبي الحسن الندوي ص ٢٤.

سادسا: معايشة القرآن الكريم

فمعايشته مِنْ أعظمِ السُّبُلِ إلى فهمِ أحكامِهِ والوقوفِ على معانيه وإدراك حِكَمِهِ ومراميه، ومن تأمل على سبيل المثالِ في العواملِ التي أعانت الصحابة على التعمُّق في فهم كلام الله لوجد من أهمِّها معايشتَهُمْ للقرآن وحياتَهُم في ظلاله يتنسَّمُون عبيره وشذاه، ويترسَّمون سبيلَهُ وهُداه، ويقتبسون من أنواره، ويقتطفون من أزهاره، ويجتنونَ من ثماره.

وقد أرجَعَ الشاطبي نبوغَ الصحابة في فهم القرآن إلى أمرينِ:

«أحدهما: معرفتهم الواسعة بلغة القرآن.

والثاني: مباشرتهم للوقائع والنوازل وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة.

فهم أقعدُ في فهمِ القرائنِ الحاليَّةِ وأعرفُ بأسبابِ التنزيلِ، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك، والشاهدُ يرى ما لا يرى الغائبُ، فمتى جاء عنهم تقييدُ بعضِ المطلَقَاتِ أو تخصيصُ بعضِ العموماتِ فالعملُ عليهِ صوابٌ، وهذا إن لم ينقلْ عن أحدٍ منهم خلافٌ في المسألةِ فإن خالفَ بعضُهُم: فالمسألةُ اجتهادِيَّةٌ»[(١)].

«فلقد كانت الآيات تتنزَّلُ في أمورٍ باشرُوها بأيديهم أو أبصرُوها بأعينِهم، أو خاضوا غِمَارَها فعاشوا حُلْوَهَا وَمُرَّهَا، وَفَرَحَهَا وَحُزْنَهَا، وكابدوا معاناتَهَا، وأدركوا ملابساتِهَا،

(١) الموافقات للشاطبي ٣ / ٣٣٨.

فكانت الآياتُ تقعُ في قلوبهم مواقِعَهَا، فعنها يَصْدُرُون، وإليها يَرِدُون ورودَ الظامئ إلى الماءِ البارِدِ»[١].

وكلُّ من حمل لواء الدعوة وهمومها وجاهد في سبيل إعلاء كلمة الحق:

«فله في معايشة القرآن ولذة قراءته وفهم معانيه وتدبُّر مقاصده حظًّا وافرًا، يُفْتَحُ له، بِحَسْبِ جهادِهِ وعلمِهِ وبذلِهِ ويقينِهِ وصبرِهِ، وبحسبِ المواقفِ التي مرَّتْ بِهِ، وقد ذكَرَ القرآنُ نظائِرَهَا في حياةِ الأنبياءِ وأتباعِهِمْ، وكلُّ مؤمنٍ يحملُ نصيبًا مِنْ حَمْلِ رسالةِ القرآنِ: سيعيشُ مع الآياتِ تدبرًا وتأثرًا ما كان يعيشُهُ في أرضِ الواقعِ، معاناةً وجهادًا ودعوةً وعطاءً»[٢].

من هنا كانت أهمية أن يتعايش المتدبِّرُ القرآن بكل جوارحه ويجمعُ له شتات روحِهِ وأركانَ فؤادِهِ ليعيش بكلِّ ذرة من ذراتِهِ وكلِّ خَلَجَةٍ من خلجاتِهِ ويتعايشَ بمشاعِرِهِ وَوُجْدَانِهِ مع كتابِ اللهِ تعالى، هُنَالِكَ تنجلي له الحقائقُ وتتفجرُ له ينابيعُ المعاني وتضيءُ له مشاعلُ الهدى فيسيرُ على هدى وبصيرة.

اعرض نفسك! قال الآجريُّ رحمه الله: «فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن فكان كالمرآة يرى بها ما حسن من فعله وما قبح منه، فما حذَّره مولاه حَذِرَهُ، وما

(١) تدبر القرآن تأليف سلمان بن عمر السنيدي ص ٩٧ .

(٢) تدبر القرآن تأليف الأستاذ سلمان بن عمر السنيدي ص ٩٧.

خوّفه به من عقابه خافه، وما رغّبه فيه مولاه رَغِبَ فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حقّ تلاوته ورعاه حق رعايته، وكان له القرآنُ شاهدًا وشفيعًا وأنيسًا وحرزًا، ومن كان هذا وصفه نفع نفسه ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كلُّ خير في الدنيا والآخرة»[(١)].

سابعا: التدبر العام للقرآن

كلما تعمقنا في تدبر آيات القرآن تعمق فهمنا لسورة الفاتحة، فكل ما جاء بعدها بيان وتقرير لمعانيها، وهي كما تقرر أم الكتاب لكونها جمعت مقاصده واستوعبت معانيه، فلا بد لطالب كنوزها، أن يجيل النظر ويمعن التدبر لسائر سور القرآن، سيجد كيف جاءت بتقرير وتكرير معانيها وبيانها وبسطها بإسهاب، كيف يربط القرآن بين الربوبية والرحمة،

- قال تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾..... [سورة ص: ٩]
- ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ .... [مريم:٢]
- ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ ..... [الزخرف: ٣٢].

---

(١) أخلاق حملة القرآن للآجري (ص:٢٩).

فكل معنى من معاني الفاتحة جاء في القرآن تقريره وبيانه وتفصيله، تأمل في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ونظير ذلك مفصلًا حيث ورد ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ تسع مرات، كلها مكية؛ حيث تقرير العقيدة، منها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩].

كيف تربط آيات القرآن بين العبادة والاستعانة، ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وتأمل كيف جمعت لنا آية معاني الفاتحة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [مريم: ٣٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [الزخرف: ٦٤].

كما لفت نظري على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]، قارنتها بما جاء في الفاتحة من طلب العون من الله، والصراط المستقيم، والسبل المنحرفة ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ۝٥ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧]، وتأمل في آيات الحمد وآيات الربوبية، وآيات الرحمة، وآيات العبادة، والاستعانة، والهداية، والصراط المستقيم، إلخ، ستجد كيف تفسر الآيات بعضها بعضا، تأمل كيف يدعو القرآن للاستقامة على المنهج ويقرن هذا بالتحذير من طرق الغواية والضلال ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ

تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٣ - ٧٤] ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٦٨ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٨ - ٦٩].

الهداية للصراط المستقيم، وثواب المنعم عليهم، قارن ذلك في الفاتحة ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وهكذا سنجد كيف تتكرر معاني الفاتحة في باقي السور، فهي السبع المثاني كما وصفها ربنا، تثنى في الصلاة، وتثنى في سائر القرآن، بتكرار معانيها.

«فسورة الفاتحة أرست القاعدة والمنطلق، ورسمت المنهج وحددت معالمه، ثم جاءت الآيات بعد ذلك مقررة وداعية إليه»[(١)].

(١) تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر ص ١٧، ط مركز تدبر، الرياض ١٤٣٧هـ.

ثامنا: رياضة النفس وتعويدها على تدبر سورة الفاتحة:

أعد الكرة مرةً بعد مرة ! مرِّن نفسك: ربما يقبل العبد على الصلاة فيقرأ الفاتحة أو يسمعها من الإمام ويشرد قلبه، فلا يقف عند معانيها، فعليه أن يعيد الكرة في الركعة الثانية، حتى يتقدم في هذا الأمر، ويتعود تدبر الفاتحة تاليا أو مستمعا، «إن العبد إذا مرّن نفسه وقلبه على التفهم والتدبر والخشوع والخضوع في الصلاة انغرست في قلبه خشية الله ومحبته والرغبة فيما لديه، وحضرته هيبة خالقه في جميع أحواله وفي جميع أعماله. فإذا قلت الله أكبر فاستحضر عظمة الله وأنه لا شيء أكبر منه ولا شيء أعظم منه وأنه مستحق لأن يعظم ويجل ويقدّر وأنه ليس أحد يساويه أو يدانيه في عظمته.

- وإذا قلت: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فاستحضر أنه المستحق للثناء وأنه المربي لجميع الخلق التربية العامة والمربي لخواص خلقه التربية الخاصة، وهي تربية القلوب على العقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة.

- وإذا قلت: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ استحضرت لرحمته العامة والخاصة راجيًا منه أن يجعلك ممن كتبها لهم.

- فإذا قلت: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ مجّدتَه واستحضرتَ لوقوفك بين يديه وهو أحكم الحاكمين.

- فإذا قلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ استحضرتَ أنك تخصُّه وحده بالعبادة والاستعانة، المعنى نعبدك ولا نعبد غيرك ونستعين بك ولا نستعين بغيرك.

- فإذا قلت: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ استحضرتَ أنك تتضرع إليه وتسأله أن يدلك ويرشدك ويوفقك إلى سلوك الصراط المستقيم وأن يثبتك عليه، فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد ولهذا وجب على العبد أن يدعو به في كل ركعة من صلاته لضرورته إلى ذلك، وهذا الصراط هو صراط المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، وافعل باقي صلاتك كما فعلت في أولها من التدبر والتفهم محضرًا قلبك لمعاني ما تقوله وما تسمعه حتى تكتب لك كاملة[(١)].

تاسعا: التعمق في فهم الواقع والحياة ودراسة التاريخ

إن من تعمقت معرفته بالكون تعمق إدراكه لمعاني الربوبية، وتعمق تبصُّره وتعقله لآيات الله في الأنفس والآفاق، فليس إدراك طفل لما في بستان من زرع وثمرٍ كإدراك المهندس الخبير، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، فعندما نقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١ ٱلرَّحْمَٰنِ

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار للسالمان (٢/ ٤٩).

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فإننا نفهم بنا بقدر معرفتنا بتلك العوالم وربوبية الله تعالى لها خلقًا وإبداعًا، ورزقًا وتدبيرًا، وحفظًا ورعايةً.

كذلك فهمنا للواقع ومعرفتنا بالتاريخ، يزيد تدبرنا عمقا ونفاذا، يقول الإمام أبو الحسن الندوي:

«لا يتذوق كلمة ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ولا يؤمن بصحتها وانطباقها على اليهود إلا من درس تاريخهم وعرف سيرتهم، والدور الهدّام الذي لعبوه في تاريخ الإنسانية والمدنية، وما يحملونه من حقد دفين للأجيال البشرية عامة، ومن حب الاستعلاء والأثرة، وكذلك لا يفهم الإنسان سر اختصاص النصارى بالضلال ووصفهم بالضالين إلا إذا قرأ تاريخ المسيحية، وما تعرضت له من المسخ والتحريف، والغموض والإلباس منذ عهدها الباكر، والدور الذي لعبه اليهودي بولس في تحريف الديانة، والدور الذي لعبته الكنيسة في تلوينها وتفسيرها، ومدى خضوع النصارى لهذه المؤثرات»[(١)].

عاشرا: الحرص على صلاة الجماعة

ففي حضور الجماعات بالمسجد في أول وقتها وفي الاستباق للصف الأول بركة عظيمة وأثر واضح في حسن التدبر والتوفيق له، لا يقارن بصلاة الإنسان منفردا، أو

(١) الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، ص ٤١

بعيد عن الصف الأول، يشعر بذلك من جرّبه، وتذوقه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ لَاسْتَهَمُوا عَلَيْهِ»[1].

فليس المطلوب من المسلم أن يؤدي الصلاة بأي حال، بل أن يقيمها على أحسن الوجوه، ولذلك يأتي التعبير دائما بالإقامة وليس بمجرد الأداء، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، تأمل القران بين إقامة الصلاة وإجابة الدعاء، والفاتحة دعاء، وثمرة تدبرها في استجابته.

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٣٢٥) باب فضل النداء والصف الأول والتكبير وصلاة العتمة والصبح ح ١٢٩ - (٤٣٧) وصحيح ابن خزيمة ط ٣ (١/ ٧٤٩).

الفَصْلُ الثَّالِثُ

رِحْلَةُ البَحْثِ عَنِ الكَنْزِ

مَعَالِمُ عَلَى طَرِيقِ بِنَاءِ الشَّخْصِيَّةِ فِي ضَوْءِ سُورَةِ الفَاتِحَةِ

كيف نعيد بناء الشخصية المسلمة؟ كيف نغيِّر من أنفسنا؟ ما هي الخطوات العملية نحو التغيير وإعادة الصياغة؟ كيف نجعل من قراءتنا لسورة الفاتحة زادا ونبراسا، نستلهم منه معالم طريقنا نحو الارتقاء والنهوض؟

1. استحضار نعم الله تعالى.
2. استشعار عظمة الله.
3. استمطار رحمة الله.
4. التأسي.
5. الحذر من طرق الغواية والضلال.
6. العبادة.
7. الاستعانة.
8. وضوح الغاية والمنهج.

إن بناء الشخصية وفق المنهج الرباني ليس بالأمر اليسير، سيما في هذا العصر، الذي يشهد ضعف الأمة، والبعد عن المنهج الإسلامي في مجال التربية، والتأثر بالمناهج الغربية، والتحديات التي يواجهها المربون والمصلحون، والفتن المتلاحقة، كل هذا جعل من تغيير الأنفس، وصياغة الشخصية أمرا صعبًا، فوق ما قد يترتب على هذه المؤثرات الوافدة من تشوش للفكر، واختلاط للمفاهيم، ونكوب عن المنهج القويم، تحديات كثيرة كيف نواجهها؟ وطموحاتٌ وآمال عظيمة كيف نحققها؟

أولا: استحضار نعم اللّه تعالى:

إن أول ما تستهل به الفاتحة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ففي أولها حمد لله تعالى على نعمه ما ظهر منا وما بطن، وفي حمد الله تعالى شعور بالرضا والطمأنينة، وفي هذا من الصحة النفسية ما فيه.

وقد وعد الله تعالى الشاكرين بالمزيد من النعم والمزيد من الفضل، والمزيد من الخير، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٧]، يزيدنا من نعمه الدنيوية والأخروية، ومن نعم الله كما في الفاتحة العون والهداية والاستقامة والإنعام. فالحمد لله مفتاح لكنوز الإنعام، وبابٌ للمزيد من التفضُّل والإكرام والإحسان. ومن نعم الله التوفيق لفهم كتابه والعمل به، ومن نعمه تعالى تربيتنا وهدايتنا وإرشادنا وتوفيقنا، والارتقاء بنا، ومعونتنا، وحفظنا، وكل هذا مجموع في ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فإذا قلنا بصدقٍ وحضور قلب كان حظنا منها المزيد من الهداية والإرشاد والارتقاء والعون.

ثانيا: استشعار عظمة اللّه:

كذلك حمد الله تعالى على ما اتصف به من صفات الكمال والجلال وهذا مما يزيد العبد محبة وتعظيما وإجلالا ورهبة ورغبة في خالقه ذي الكمال والجلال، مما يقوّي رغبته ورجاءه في أن يرقى بنفسه وينهض بها إلى المعالي بقدرة ذي الكمال والجلال.

فإذا قال: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استحضر عظمة الربوبية، أنه تعالى هو المربي لعباده

الهادي والمعلم لهم القائم عليهم بما يصلحهم الحافظ لهم، فإذا قرأ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ استحضر عظمة هذا اليوم وعظمة الملك جل وعلا، وامتلأ قلبه رهبة وإجلالا، قال أبو حيان:

«وَفَائِدَةُ تَخْصِيصِ هَذِهِ الْإِضَافَةِ -وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى مَالِكَ الْأَزْمِنَةِ كُلِّهَا وَالْأَمْكِنَةِ وَمَنْ حَلَّهَا- وَالْمِلْكُ فِيهَا التَّنْبِيهُ عَلَى عِظَمِ هَذَا الْيَوْمِ بِمَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ وَالْأَهْوَالِ الْجِسَامِ، مِنْ قِيَامِهِمْ فِيهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَالِاسْتِشْفَاعِ لِتَعْجِيلِ الْحِسَابِ وَالْفَصْلِ بَيْنَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ، وَاسْتِقْرَارِهِمَا فِيهِمَا وَعَدَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ يَوْمٌ يُرْجَعُ فِيهِ إِلَى اللَّهِ جَمِيعُ مَا مَلَّكَهُ لِعِبَادِهِ وَخَوَّلَهُمْ فِيهِ، وَيَزُولُ فِيهِ مِلْكُ كُلِّ مَالِكٍ»[(١)].

فإذا قرأ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ استحضر فقره وحاجته لربه وتذكّر عظمة الله تعالى وجلاله وقدرته فهو المعبود وحده وهو المستعان لا يستعان بغيره.

فإذا طلب الهداية لنفسه ولإخوانه ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ استحضر في دعائه عظمة من يدعوه وجلال سلطانه وجليل إنعامه.

فإذا قرأ ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ امتلأ قلبه تعظيما ورهبة وإشفاقا ووجلا من غضب الله.

---

(١) البحر المحيط (١/ ٤٠)

فإذا قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ شعر بالانقباض من حالهم والتبرؤ من طريقهم.

فإنه مما يعين على تزكية النفس وتقويم السلوك وتطوير الشخصية؛ الخوف والرجاء والرغبة والرهبة والقبض والبسط مما يحفز الإنسان على النهوض والتغيير، وسورة الفاتحة تجمع بين التعظيم والمحبة والخوف والرجاء والرضا والتسليم، قال الغزالي:

«وأما قولُه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ إلى آخر السورة: فهو تذكيرٌ بنعمته على أوليائه، ونَقْمَتِه وغضبه على أعدائه، لِتَسْتَثِيرَ الرغبةَ والرهبةَ من صميم الفؤاد»[(١)].

الترغيب والترهيب يلهب القلوب ويشحذ الهمم ويدفع السآمة والملل، ويُذهب الفتور والكلل، ويقوي الداعي للخير والعمل، ويغرس الطموح والأمل، ويحفز النفوس على المسارعة والسبق، ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «الحب والخوف والرّجاء. هذه الأركان الثلاثة هي أركان التعبّد القلبية التي لا قبول لأيِّ عبادة إلاّ بها، فالله جلّ وعلا، يُعْبَد حبًّا فيه ورجاءً لثوابه وخوفًا من عقابه، وقد جمع الله تبارك وتعالى بين هذه الأركان الثلاثة في سورة الفاتحة التي هي أفضل سور القرآن، فقوله سبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ

(١) جواهر القرآن (ص: ٧٠).

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيه المحبّة؛ لأنَّ الله منعم، والمنعم يُحَب على قدر إنعامه؛ ولأنَّ الحمد هو المدح مع الحبّ للممدوح.

وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيه الرجاء، فالمؤمن يرجو رحمة الله ويطمع في نيلها، وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه الخوف، ويوم الدّين هو يوم الجزاء والحساب، ثمّ قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أي أعبدك يا ربّ بما مضى بهذه الثلاث: بمحبّتك ورجائك وخوفك، فهذه الثلاث هي أركان العبادة التي عليها قيام ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لا تقوم إلاّ على المحبّة التي دلّ عليها قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ والرّجاء الذي دلّ عليه قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ والخوف الذي دلّ عليه قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ[1]﴾.

قال القرطبي: «وَصَفَ نَفْسَهُ تَعَالَى بَعْدَ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، بِأَنَّهُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِي اتِّصَافِهِ بِـ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تَرْهِيبٌ قَرَنَهُ بِـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، لِمَا تَضَمَّنَ مِنَ التَّرْغِيبِ، لِيَجْمَعَ فِي صِفَاتِهِ بَيْنَ الرَّهْبَةِ مِنْهُ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ أَعْوَنَ عَلَى طَاعَتِهِ وَأَمْنَعَ، كَمَا قَالَ: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠]»[2].

(١) انظر: مؤلّفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦هـ) (القسم الأول: العقيدة والآداب الإسلامية، ص:٣٨٢،٣٨٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ١٣٩)

وفي استحضارنا لعظمة الله ونحن نقرأ الفاتحة ما يزيدنا قربًا لربنا، وما يقوي رجاءنا ورهبتنا. وما يزيدنا ثباتا وقوة في الحق. وما يهون علينا كل صعبٍ.

في تعظيمنا لله تعظيم لكتابه وشريعته وسنة نبيه، تعظيم للمنهج الرباني، تعظيم لأثره في إصلاحنا والنهوض بنا.

ثالثا: استمطار رحمة الله:

يتكرر اسم الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مرتين، في البسملة وفي الفاتحة، وفي ذكره وتكراره استمطار لرحمة الله واستدعاء لها.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: رحمة الله التي وسعت كل شيء بعباده كلهم مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: بأوليائه، فالرحمة العامة التي وسعت كل شيء تتجلى في اسم الله الرحمن، والرحمة الخاصة التي يختص الله بها من يشاء تتجلى في اسم الله الرحيم، الرحمن بخلقه جميعا، خلقهم ورزقهم ودبر مصالحهم وهداهم لما فيه مصالحهم الدنيوية، كما أرسل لهم الرسل لهدايتهم لمصالحهم الأخروية، وسعادتهم الأبدية، الرحيم بعباده المؤمنين، من هنا فالسورة الكريمة ليست دعاء للمؤمن وحده بل لكل إنسان، فمن قرأها بتجردٍ تحقق له المطلوب، كما مر في الحديث القدسي «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل» ومن المعلوم أن كل من طلب الهداية بصدق وعزم نالها، فسورة الفاتحة دعاء لكل إنسان يتوجه به إلى خالقه تعالى طالبا الهداية والتوفيق والإنعام.

فمن أسباب صلاح النفس واستقامتها وتزكيتها، استحضار رحمة الله تعالى، فمن رحمته تعالى الخاصة:» تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها تربية التوفيق لكل خير، والعصمة من كل شر، ويدل عليها اسم الله ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾. قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب ٤٣]»[1].

رابعا: التأسي:

التربية بالقدوة من الأساليب القويمة في التربية؛ إذ لا بد من مُثل يقتدي بها السالكون، ونماذج يُحتذى بها.

وسورة الفاتحة تبين لنا أن طريق تزكية الأنفس وصياغة الفرد المسلم عليها منارات يستنير بها السائرون، وفي سمائها نجوم بها يقتدون، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فبيّن تعالى في وصف طريق الحق وتعريفه للناس أنه طريقٌ يسلكه من أنعم الله عليهم وقد جاء بيانهم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]

الأنبياء والصديقون الذين بلغوا أعلى مراتب الصدق والشهداء وعامة الصالحين الذين كان الصلاح سجيتهم وطبيعتهم، هم قدوتنا وأئمتنا.

(١) تدبر سورة الفاتحة، د. ناصر العمر ص ٣٧

الأنبياء: وقد أمرنا بالاقتداء بهم فهم نجوم الهدى في دياجير الظلام ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]

وفي مقدمتهم نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال تعالى آمرًا بالتأسي به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال في الخليل إبراهيم عليه السلام ومن كان معه على الحق ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦].

وكذلك التأسي بالصديقين والشهداء والصالحين، من السلف الصالح؛ فهم خير القرون، قد حازوا الشمائل وفازوا بالفضائل، أخرج أبو نُعيم عن عبد الله بن عمر قال:

«من كان مُستنًّا فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، كانوا خير هذه الأمة، أبرَّها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلُّفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ونقْل دينه، فتشبَّهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كانوا على الهدى المستقيم»[١].

(١) حلية الأولياء لأبي نُعيم الأصبهاني (١/ ٣٠٥).

ويقول أبو الحسن الندوي في مقدمته لكتاب حياة الصحابة: «إن السيرة النبوية وسير الصحابة وتاريخهم من أقوى مصادر القوة الإيمانية والعاطفة الدينية، التي لا تزال هذه الأمة تقتبس منها شعلة الإيمان، وتشعل بها مجامر القلوب، التي يسرع انطفاؤها وخمودها في مهب الرياح والعواصف المادية، والتي إذا انطفأت فقدت هذه الأمة قوتها وميزتها وتأثيرها، وأصبحت جثة هامدة تحملها الحياة على أكتافها.

إنها تاريخ رجال جاءتهم دعوة الإسلام فآمنوا بها وصدقتها قلوبهم.. وضعوا أيديهم في يد الرسول ﷺ، وهانت عليهم نفوسهم وأموالهم وعشيرتهم، واستطابوا المرارات والمكاره في سبيل الدعوة إلى الله، وأفضى يقينها إلى قلوبهم، وسيطر على نفوسهم وعقولهم، وصدرت عنهم عجائب الإيمان بالغيب، والحب لله والرسول، والرحمة على المؤمنين والشدة على الكافرين، وإيثار الآخرة على الدنيا، والحرص على دعوة الناس، وإخراج خلق الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتها، والاستهانة بزخارف الدنيا وحطامها، والشوق إلى لقاء الله، والحنين إلى الجنة، وعُلو الهمة، وبُعد النظر في نشر رِفد الإسلام وخيراته في العالم، وانتشارهم لأجل ذلك في مشارق الأرض ومغاربها، ونسوا في ذلك لذَّتهم، وهجروا راحاتهم، وغادروا أوطانهم، وبذلوا مُهَجَهم وحرّ أموالهم حتى أقبلت القلوب إلى الله، وهبَّت ريح الإيمان قوية عاصفة، طيبة مباركة، وقامت دولة التوحيد والإيمان

والعبادة والتقوى، وانتشرت الهداية في العالم، ودخل الناس في دين الله أفواجًا»[(١)].

لقد كان القرآن هو المنبع الأول والمنهج المؤثر الذي قام بتربية الصحابة، ورفعهم إلى أعلى الآفاق بعد أن كانوا في أسفل السفوح، وكان الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم بوظيفة المعلم والمربي الذي يتعاهد فعل القرآن فيهم، ويُعمق معانيه في نفوسهم، ويشرح لهم ما أُشكل فهمه عليهم.. كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المُبلغ عن الله، والمُربي والقدوة العملية لتمام وكمال العبودية لله عز وجل..[(٢)]

لقد كانوا جيلًا من الربانيين العابدين الزاهدين المجاهدين المتواضعين، كانوا بمثابة أعظم وأصدق شهادة لقوة تأثير القرآن، وأكبر دليل إثبات لقدرته -بإذن الله- على إعادة صياغة وتشكيل الإنسان على النحو الذي يُحبه الله ويرضاه مهما كان انحرافه وضلاله[(٣)].

ومن مزايا التأسي في الإسلام: شموله وامتداده بدءا من التأسي بأنبياء الله تعالى والاقتداء بهم كما أمرنا ربنا جل وعلا وكتابه زاخر بالمواقف والمشاهد والصور من حياتهم المضيئة، هدى الله أنعم الله عليهم، كما نتأسى بنبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خلال سيرته العطرة والمنثورة بين القرآن وكتب السنة وغيرها من مصادر السيرة المباركة

(١) مقدمة كتاب حياة الصحابة للكاندهلوي (١/ ١٥) بتصرف يسير.
(٢) نظرات في التربية الإيمانية ص: ٦٢
(٣) نظرات في التربية الإيمانية (ص: ٦٢) ويراجع مقومات التصور الإسلامي، ص ١٩٢، ١٩٣.

أعظم سيرة في الوجود، ومن حكمته تعالى أن قصص الأنبياء وسيرة نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفحات واضحة جلية متكاملة حتى نتأسى بها لأنه تعالى حين أمرنا بالتأسي بنبينا حفظ لنا سيرته وهي مادة تأسينا ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]،كما نتأسى بمواقف الصحابة الكرام وسائر الصالحين في كل العصور.

خامسًا: الحذر من طرق الغواية والضلال:

وما أكثر هذه الطرق ! وربما كانت مزدانة بالبهارج الزائفة والبوارق الخادعة والأعلام المضللة، فيلتبس أمرها على من لا فقه له، نقرأ سورة الفاتحة عشرات المرات في يومنا وليلتنا ونقرأ فيها هذا التحذير من كل طريق يفضي إلى غضب الله، وكل طريق يقود إلى ضلال ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

فنتحاشى كل طريق يستوجب سالكُه غضب الرحمن مهما كان مبهرجا ومزيّنا، ونتلاشى كل طريق يمضي بصاحبه إلى الضلال، مهما كان مزخرفا ومذوقا.

ونعاهد ربنا ونحن وقوف بين يديه على التزام طريق الاستقامة، والحذر من كل زيغ وضلال، والولاء للحق وأهله، والبراء من الباطل وحزبه.

سًادسا: العبادة:

هي غاية خلق الإنسان ورسالة وجوده ووسيلته إلى النهوض بنفسه والارتقاء بسلوكه فمنها يستمد الطاقة والهمة التي تدفعه إلى التغيير وتنطلق به إلى المعالي وتحلق به في أجواء الفضيلة. نقرأ في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

«والْعِبَادَة هِيَ اسْم جَامع لكل مَا يُحِبهُ الله ويرضاه من الْأَقْوَال والأعمال الْبَاطِنَة وَالظَّاهِرَة. فَالصَّلَاة وَالزَّكَاة وَالصِّيَام وَالْحج وَصدق الحَدِيث وَأَدَاء الْأَمَانَة وبرّ الْوَالِدين وصلَة الْأَرْحَام وَالْوَفَاء بالعهود وَالْأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر وَالْجهَاد للْكفَّار وَالْمُنَافِقِينَ وَالْإِحْسَان للْجَار واليتيم والمسكين وَابْن السَّبِيل والمملوك من الْآدَمِيّين والبهائم وَالدُّعَاء وَالذكر وَالْقِرَاءَة وأمثال ذَلِك من الْعِبَادَة. وَكَذَلِكَ حب الله وَرَسُوله وخشية الله والإنابة إِلَيْهِ وإخلاص الدّين لَهُ وَالصَّبْر لحكمه وَالشُّكْر لنعمه وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ والتوكل عَلَيْهِ والرجاء لِرَحْمَتِهِ وَالْخَوْف من عَذَابه وأمثال ذَلِك هِيَ من الْعِبَادَة لله»(١).

فكمال الْمَخْلُوق فِي تَحْقِيق عبوديّته لله وَكلما ازْدَادَ العَبْد تَحْقِيقا للعبودية ازْدَادَ كَمَاله وعلت دَرَجَته، وعبادة الله تمنح الإنسان الطاقة والزاد والنور الذي يمضي به في الحياة. وتصبغ الإنسان بصبغة حسنة فريدة ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ

(١) العبودية لابن تيمية (ص: ٤٤).

عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، صبغة تجعله متميزا عن غيره في سلوكه وهيئته، حتى في مشيته وكلامه وهندامه وجوابه واهتمامه وطموحه، ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٧٦].

فهم متميزون حتى في مشيتهم التي لا استعلاء فيها ولا خنوع بل مشية الواثق المطمئن، المتواضع لخالقه الرفيق بالمخلوقات من حوله، متميزون في مخاطبتهم ومحاورتهم، ومسالمتهم وموادعتهم مع ثباتهم على الحق، مواظبون على العبادة بهمةٍ عالية وعزيمةٍ ماضيةٍ، مشفقون على أنفسهم من عذاب الله، سلوكهم معتدلٌ ومنضبط كما هو الشأن في نفقاتهم فلا إسراف ولا تقتير، لا يشركون بالله شيئا ولا يقترفون كبائر الذنوب،

بعيدون عن شهادة الزور وعن اللغو من الكلام، قريبون مقبلون على كلام ربهم يصغون له ببصيرة متفتحة، حريصون على النهوض والارتقاء إلى معالي الرتب التي يستوهبونها من ربهم، ويجتهدون في تحصيلها، لتصبح بيوتهم منارات لمن حولهم من البيوت، فهم وأهلوهم نموذجٌ عمليٌّ للتقوى وأئمة روّادٌ للسالكين طريقها، ذاك التميز في الدنيا ينبثق عنه التميز في الآخرة والفوز بالنعيم المقيم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

سابعًا: الاستعانة:

صياغة الشخصية ليست بالأمر الهيّن، بل تحتاج لعون كبير من الله، وأي عمل مهما كان يسيرا لا يستغني عامله عن عون ربه، ولذا نردد دائما ونكرر ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فالهداية من الله تعالى، والصلاح والاستقامة، والأدب والفضائل عطاء منه تعالى وفضل؛ فلنسأل الله تعالى أن يزكينا ويهدينا ويؤدبنا، قال تعالى:﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]. ولا يمكن للإنسان هذا المخلوق الضعيف أن يجاهد نفسه ويزكّيها بدون عون وتوفيق من الله تعالى، بل يحتاج في كل لحظة ولفظة، في كل خطوة وخطرة إلى أن يستعين بربِّه في حمل النفس على ما تكره من مكارم السجايا هذا نبي الله يعقوب تعرّض لأعظم بلاء بفقد ولده المحبوب بتآمر إخوته، فتذرع بالصبر ولجأ لربه طالبا منه العون؛ فالأمر فوق ما يحتمله الأب بضعفه البشري وعاطفة الأبوة، ذكر الرازي في تفسير قوله

تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]:

«... ما يدل على قوة مغالبة بين دواعيه النفسية المحترقة حزنا وهمًّا على يوسف، والتي تدعوه لإظهارِ الجَزَع، وبين داعي الرحمن الذي يأمرُهُ بالصبر والرضا، فكان لا بد من الاستعانة بالله على لجم دواعيه النفسية»[١]. ذلك أن الصبر على هذا الأمر فوق طاقة البشر فلا بدَّ من طلب العون الإلهي.

وقد حرص النبي ﷺ على غرس هذه المعاني العظيمة في قلوب أصحابه وأمته، فقد قال في الوصية الجامعة لابن عباس: «وإذا استعنت فاستعن بالله»[٢]. وقال ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز»[٣].

وكان من دعائه ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها. وزكِّها أنت خير من زكاها. أنت وليها ومولاها»[٤].

(١) مفاتيح الغيب التفسير الكبير للرازي ١٨ / ١٠٧.

(٢) رواه الترمذي في السنن أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ (٤/ ٦٦٧) ح ٢٥١٦ وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. ورواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٤٠٩) حديث ٢٦٦٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. القدر. باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله حديث ٢٦٦٤ (٤/ ٢٠٥٢).

(٤) أخرجه مسلم. ك الذكر والدعاء حديث (٢٧٢٢).

«فالاستعانة تحتها سرٌّ عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقرُّ ولا يطمئنُّ ولا يسكن إلا بالوصول إلى الله، فمن كانت محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه، واستعانته به ظفر بنعمته ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد»[(١)].

وكان أبو مسلم الخولاني إذا أهمه أمر قال: يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين[(٢)].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن العبد محتاج في كل وقت إلى الاستعانة بالله على طاعته وتثبيت قلبه، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[(٣)].

محتاج في كل لحظة إلى طلب الهداية من ربه فيما بين يديه من عمل وما يواجهه من طريق، يحتاج لهداية الله لا نستغني عنها طرفة عين. وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات، والصّبر على المقدورات كلّها في الدّنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلّا الله عَزَّوَجَلَّ، فمن حقّق الاستعانة عليه في ذلك كلّه أعانه الله، ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكّله الله إلى من استعان به، فصار مخذولًا، وهو كذلك في أمور الدّنيا؛ لأنّه عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضارّه، ولا معين له على

(١) يراجع: الفوائد لابن القيم (ص٢٠٢) بتصرف.

(٢) ربيع الأبرار وفصوص الأخيار (٢/ ٣٨٩) تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٦٩)

(٣) فتاوى ابن تيمية (١٠/٤٥٦).

مصالح دينه ودنياه جميعا إلّا الله عَزَّوَجَلَّ فمن أعانه الله فهو المعان ومن خذله الله فهو المخذول»[١].

وقال في تفسير سورة الفاتحة:

«وأما الاستعانةُ باللَّهِ عزَّ وجلَّ دونَ غيره من الخلقِ، فلأنَّ العبدَ عاجزٌ عن الاستقلالِ بجلب مصالحِهِ، ودفع مضارِّهِ، ولا مُعينَ لهُ على مصالح دينِه. ودنياهُ إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ، فمنْ أعانَهُ اللَهُ، فهو المُعانُ، ومن خذَلَهُ فهو المخذولُ»[٢].

والمرء لا ينهضُ ولا ينجح إلا بتوفيق الله وعونه، ولذا كان دأبه وديدنه الاستعانة بربه في كل وقت وحين، وفي كل عمل مهما كان يسيرا، وصدق من قال: إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأولُ ما يجنِي عليه اجتهادُه[٣].

قال الألوسي: «فمن استعان بغيره في المهمات بل وفي غيرها فقد استسمن ذا ورم، ونفخ في غير ضَرَم، أفلا يستعان به وهو الغني الكبير؟ أم كيف يطلبُ من غيره والكلُّ إليه فقير؟ وإني لأرى أن طلب المحتاج من المحتاج سفهٌ من رأيه، وضِلة من عقله، فكم قد رأينا من أناسٍ طلبوا العزة من غيره فذلُّوا، وراموا الثروة من سواه فافتقروا، وحاولوا الارتفاع فاتضعوا، فلا مستعان إلا به ولا عون إلا منه

(١) جامع العلوم والحكم (ص١٨٢) بتصرف.
(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٧٤).
(٣) البيت منسوب لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ينظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي (١/١٧٧).

إليـك وإلا لا تُشَدُّ الركائـبُ ومنـكَ وإلا فالمؤمِّـلُ خائـبُ

وفيـك وإلا فالغـرامُ مُضَيَّـعٌ وعنك وإلا فالمحدث كاذب»[(١)]

ونقرأ في الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: افتقار العبد ومذلته وخضوعه واستكانته لربه مع تعظيم الله والثقة به واليقين بوعده، وبقدر استشعار العبد لافتقاره لربه وبقدر استشعاره لعظمة ربه وكمال قدرته بقدر تحقيقه لمعنى الاستعانة. والعبد فقيرٌ إلى الله من جهتين، من جهة العبادة، ومن جهة الاستعانة كما قال الله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فالعبد يفتقر إلى الله من جهة أنَّه معبودُه الذي يحبُّه حبَّ إجلال وتعظيم، وقلبُه لا يصلح ولا يفلح، ولا يُسرُّ ولا يلتذُّ، ولا يطيب ولا يسكن، ولا يطمئن إلاَّ بعبادة ربِّه والإنابة إليه، ولو حصل له كلُّ ما يلتذُّ به من المخلوقات لَم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقرٌ ذاتي إلى ربِّه من حيث هو معبودُه ومحبوبُه ومطلوبُه، وبهذا يحصل له الفرحُ والسرورُ واللذَّةُ والنِّعمةُ والسكونُ والطمأنينة، والعبد يفتقر إلى الله من جهة استعانته به للاستسلام لأمره، والانقياد لحكمه، والخضوع لشرعِه؛ إذ لا يقدر على تحصيل شيء من ذلك والقيام به إلاَّ إذا أعانه الله»[(٢)].

(١) روح المعاني للألوسي (١/ ٩١). والبيت ذكره ابن حجة الحموي في خزانة الأدب وغاية الأرب (١/ ٢٦٤) منسوبا لابن أبي الأصبع وقد ذكره ابن أبي الإصبع في تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر (ص: ٣٣٧) دون نسبة.

(٢) فقه الأدعية والأذكار (٢/ ١٥٧) الشيخ د. عبد الرزاق البدر، وانظر: العبودية لابن تيمية (ص:٢٩)، ومجموع الفتاوى له (١٤/ ٣١).

ومن لطائف السورة الكريمة أنها بدأت بتعريف العباد بخالقهم وبيان حقه عليهم، ثم ثنت ذلك ببيان وجوب الاستعانة به وحده؛ فالاستعانة بالله من ثمرات معرفته، وهذا من روائع أسلوب النظم في السورة الكريمة، قال ابن رجب: «ومن كلامِ بعضِ السلفِ: يا ربِّ عَجبتُ لمن يعرفك كيفَ يرجُو غيرَك، عجبتُ لمن يعرفُك كيفَ يستعينُ بغيرِكَ»[(١)].

وفي ذكر الاستعانة بالله:

«إرشاد للإنسان إلى أنّه يجب عليه أن يطلب المعونة منه على عمل له فيه كسب، فمن ترك الكسب فقد خالف الفطرة، ونبذ هدي الشريعة، وأصبح مذموما مدحورا لا متوكلا محمودا، وكذلك فيها إيماء إلى أنّ الإنسان مهما أوتي من حصافة الرأي، وحسن التدبير، وتقليب الأمور على وجوهها، لا يستغني عن العون الإلهيّ، واللطف الخفي»[(٢)].

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٧٤).

(٢) تفسير المراغي (١/ ٣٤).

ثامنا: وضوح الغاية والمنهج .

يقول الندوي رحمه الله في محاضرة له:

«يا إخواني ! اعرفوا أنفسكم قبل أن تعرفوا نفوس غيركم، اعرفوا ما أكرمكم به الله من ثروات إيمانية ومن خصائص كريمة؛ إذا عرفتم نفوسكم فقد عثرتم على الكنز الدفين»[1] .

حدد غايتك: الغاية في الإسلام واضحةٌ محددةٌ، غايةٌ صادقةٌ عادلةٌ، غايةٌ تلبي نداء الفطرة الإنسانية وتحقق المصالح العليا للإنسانية، كما أنها تلبي المطالب الفردية العادلة، وتجمع شتات القلوب، وتوثِّق عُراها، تلك الغاية الأسمى هي التي تحمل المؤمن على الصدق والتجرد والتفاني والتسامي على أعراض الدنيا، إن توحيد المنهج ينبثق عن توحيد الغاية، وتوحيد الغاية يترتب عليه توحيد الرؤى والتوجُّهات والسلوك ونبلُ الغاية يُفضي إلى نبل الوسائل المحققة لتلك الغاية، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم:٣٨].

(١) نفحات الإيمان لأبي الحسن الندوي ص ٢٥ مجموعة محاضرات باليمن والأردن.

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ [الروم:٣٩] فلا يرادُ وجهُ الله تعالى إلا بصالح الأعمال ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ومحامد الخصال، وبهذا ترقى المجتمعات وتنهض الأمم وتتحدُ كلمتُها حين تسمو غايتُها.

ويرشدنا القرآن إلى أن كل الغايات ذاهبة أدراج الرياح، لكنَّ غاية واحدة هي الباقية وهي النافعة، حين نقصد وجه الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[القصص: ٨٨].

إن الصلة وثيقةٌ بين الغاية والمنهج والثمرة؛ فالغاية وجه الله، والمنهج التسليم القلبي والإحسان العملي، والثمرة الأجر العظيم الذي ينتظره من ربه فضلا عن الأمن والسعادة التي يحظى بها في الدارين.

إن المؤمن يجعل من ابتغائه لمرضاة ربه حافزا ودافعا للتسابق إلى الخيرات والتنافس في ميادين البر، مع ضبط عمله وسلوكه بهذه الغاية المنشودة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة:٢٠٧] ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥] إن وحدة الغاية تورث انسجاما تاما وتجاوبا بين طموح الإنسان ورغباته وأفكاره وأحواله، بين

عقله وقلبه بين ضميره ووجدانه، ووحدة الغاية تنتج تجاوبا وانسجاما وألفة بين أفراد المجتمع.

أبصر منهجك:

لا سبيل للبشريّة كي تنهض وترقى إلى ذرى العُلا وقِمم المجد إلّا بمنهجٍ ربّانيٍّ. والقرآن الكريم لا يحتوي على المنهج فحسب بل يربي عليه ويرسِّخُهُ في الوجدان ويغرسُه في النُّفوس التي تزكو لتنشط وتَجِدَّ في حمل هذا المنهج، ويُحبّبُه إلى القُلوب التي تتهيأ وترتقي للتمثُّل بهذا المنهج، فالقرآن ليس دُستوراً يحكُم النّاس ويُنظّم حياتهم وعلاقاتهم فحسب بل زادٌ روحيٌّ، وغِذاءٌ ربّانيٌّ، وقبسٌ نورانيّ، ودواءٌ ناجحٌ لكُلّ الأدواء تزكو به النّفوس وتطمئن القلوب وتسمو الأرواح وتنشرحُ الصّدور وتجلو الأفهام وتتوقّد القرائح، يقدحُ زنادَ الفِكر، ويُوقظُ الهمم، ويُثير العقول، ويُرقّق المشاعر، ويُليّنُ القلوب.

تبين لنا سورة الفاتحة غاية وجودنا وهي عبادة الله وحده، ومنهجنا وهو طلب الهداية والاستقامة والتأسي بمن أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فأكرم بها من غاية ومنهج!

الفَصْلُ الرَّابِعُ

الْفَوْزُ بِالْكَنْزِ

أَثَرُ تَدَبُّرِ الْفَاتِحَةِ فِي صِيَاغَةِ الشَّخْصِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ

تمهيد: حول صياغة الشخصية[١] المسلمة

بناءُ الشخصيةِ يقومُ على أُسُسٍ متينة، ومنهجيةٍ قويمة، تراعي طبيعة الإنسان وتلبي نداء فطرته، وتحفظ له إنسانيته، وتجعل منه شخصا متوازنا، نافعا لنفسه ولغيره، محبًّا لدينه ولوطنه ولأهله وعشيرته، هذا البناء المحكم أساسُه الإيمان، وسياجُه تقوى الله، ومنارُه رضاه، ومادةُ هذا البناء النفسُ الإنسانية بشقَّيها: الروح والجسد، النفس الإنسانية بما تطويه بين جوانحها من قلبٍ، وبما تفيضُ به من مشاعرَ.

لقد عجزت كلُّ النُّظم وقصرت كلُّ الفلسفات وأخفقت الأديان المحرّفة والوضعية، كما فشلت المذاهب والقوانين في صياغة الشخصية الإنسانية، إذ لا سبيل لذلك إلا بالمنهج الرباني الذي شرعه ربُّ العالمين، ذلك الدينُ القيِّم الذي يجمعُ بين العقيدة والسلوك، ويربطُ بين العاطفة والفكرِ، ويوفِّقُ بين العبادة والعمل، «إنه دين حيٌّ ليس دينا عقليا يعيش في العقل أو في فلسفة أو في مكتبة، بل عقيدة عمل وسلوك وأخلاق، وعاطفة وشعور وذوق، يسيطر على الفكر والمشاعر، ويتحكم في موازين الأشياء والقيم، إنه يسبك الإنسان سبكا جديدا»[٢].

لقد جاء القرآن لإصلاح الإنسان وتزكيته وصياغة شخصيته وصبغها كما يريد ربُّنا

(١) صياغة الشخصية: بناؤها أو تقويمها على أسس صحيحة، فتشمل بناءها من جديد، أو إعادة بنائها، أو تقويمها وتعهدها بالإصلاح.

(٢) العقيدة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة، لأبي الحسن الندوي ص ٦٣.

ويرضى، قال تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، فالإيمان بالله - تعالى - وكتبه ورسله، والاقتداء بهم واتباعهم هو المعلَمُ الرئيسُ للشخصية المسلمة.

«فالمسلم يمتاز بأنه صبغة إلهية، وهذا يوجب علينا أن نتوجّه إلى الإسلام، نستمدُّ منه عقائدَنا وتصوراتِنا، ونرسمُ أهدافنا وغايتَنا في ضوء تعاليمه، ونقيِّمُ سلوكنا وأعمالنا وعلاقاتنا مهتدين بهديه»(١). «فالإسلام يصبغ الإنسان بصبغة خاصة في عقيدته وفكره ومشاعره وتصوراته وآماله وأهدافه وسلوكه»(٢).

فسّر السلف صبغة الله بأنها فطرته ودينه، فالإسلام دين الفطرة، والدين منهاجٌ كاملٌ شاملٌ، يصبغُ الإنسان فيميزه ويجمِّله(٣).

إن التغيير سنة كونية لن تتحقق إلا بدافع قوي نابع من أنفسنا تحركه قوةٌ هائلةٌ ناتجةٌ عن طاقةٍ متولدةٍ ومتجددةٍ، قوة ذاتية، نابعة من كياننا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

انظر إلى الطائرة ! ترتفع عن الأرض وتحلِّق في الآفاق وتخترقُ الأجواء بقوةٍ عظيمة

(١) معالم الشخصية الإسلامية، د. عمر سليمان الأشقر ص ١٩.
(٢) محاضرات إسلامية هادفة، د. عمر سليمان الأشقر ص ٢٨٣.
(٣) جامع البيان للطبري (٢/ ٦٠٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٥).

تمنحُها تلك المحركات الضخمة التي تعمل باحتراق الوقود، لتطير الطائرة وتستمر في الأجواء قبل أن تهبط إلى محطة الوصول، كذلك الإنسان في حاجة إلى وقودٍ حيويٍّ يشحذُ فيه الطاقة المتوهِّجة التي تدفعُه إلى التغيير. هذا يعني أننا بحاجة إلى طاقةٍ متجددة، إلى وقودٍ لا ينضب، حتى نحلِّق في أجواء الفضيلة، ونرتقي ذُرى المجد، ونحطّ بسلام على سفوح العلا.

وتأمل في الشلالات العظام ! كيف تندفع المياه من ارتفاعات شاهقة لتنحدرَ وتجري بسرعةٍ هائلة فتُستغلَّ لتوليد الطاقة التي بدورها تنيرُ المدن والقرى، وتبعثُ الحياةَ في المزارع والمصانع والأسواق. تلك هي الطاقة المادية التي لا يستغني عنها الإنسان لتحريك عجلة الحياة، لكنها لا تغنيه عن طاقة روحية معنوية تجدد النشاط في قلبه وتبعث الحياة في روحه، هذه القوة الخارقة وهذه الطاقة المتجددة تتمثل في كتاب الله تعالى فهو الذي تقشعر منه الجلود وتلين القلوب. هو الذي يفجرُ الطاقات ويجلّي القلوب، هو الذي يصنع المعجزات ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ [الرعد: ٣١]. هو الذي تتصدع لعظمته الجبال - لو كان قد نزل عليها- ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، فإذا كان له إمكانية هذا التأثير العظيم على الجمادات والأموات فكيف بالأحياء !

هو الذي يكاد القلب من عظمة تأثيره وجلال سلطانه أن يطير، كما جاء عن

محمد بن جبير عن أبيه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال:

سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أولُ ما وَقَرَ الإيمانُ في قلبي.. فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٧] كاد قلبي أن يطير[(١)] ! إجلالا ومهابةً وطربا وحُبًّا. من هنا كان التحوُّل، من هنا حدث أعظم تغيير في التاريخ.

يقول محمد الغزالي رحمه الله:

«الأمة التي نزل عليها القرآن فأعاد صياغتها هي المعجزة التي تشهد للنبي عليه السلام بأنه أحسن بناء الأجيال، وأحسن تربية الأمم، وأحسن صياغة جيل قدَّم الحضارة القرآنية للخلق.. فنحن نرى أن العرب عندما قرؤوا القرآن، تحولوا إلى أمة تعرف الشورى وتكره الاستبداد، إلى أمة يسودها العدل الاجتماعي ولا يُعرف فيها نظام الطبقات، إلى أمة تكره التفرقة العنصرية، وتكره أخلاق الكبرياء والترفع على الشعوب. ووجدنا بدويًّا كربعي بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول لقائد الفرس: جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. إنهم فتح

(١) رواه البخاري كتاب تفسير القرآن حدبث (٣٧٩٨). وابن ماجه في السنن كِتَابُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَالسُّنَّةُ فِيهَا. بَابُ الْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ. (١/ ٢٧٢) حديث ٨٣٢.

جديد للعالم وحضارة جديدة أنعشت الإنسانية ورفعت مكانتها، لأن الأمة الإسلامية كانت في مستوى القرآن الكريم، والحضارة الإسلامية إنما جاءت ثمرة لبناء القرآن للإنسان»[(١)].

يقول توماس كارليل في كتابه الرائع - محمد المثل الأعلى -: «ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، وأحيا به من العرب أمة هامدة، وهل كانت إلا فئة من الرحّالة، خاملة فقيرة، تجوب الفلاة، منذ قديم الزمان، لا يسمع لها صوت، ولا تحس منها حركة، فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه، ورسالة من قبله، فإذا الخمول قد استحال شهرة، والغموض نباهة، والضعة رفعة، والضعف قوة، والشرارة وهجا وسع نوره الأنحاء وعم ضوءه الأرجاء، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب، وما هو إلا قرن حتى بلغ الإسلام بلاد الهند شرقا والأندلس غربا فاتحا وحاكما، وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة، ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل، والمروءة والبأس، والنجدة ورونق الحق، والهدى على نصف المعمورة...»[(٢)].

(١) كيف نتعامل مع القرآن، ص (٣٠). ويراجع تاريخ الرسل والملوك، للطبري (٣/ ٥٢٠). حين سأله رستم:مَا جَاءَ بِكُمْ؟ قَالَ: اللَّهُ ابْتَعَثَنَا، وَاللَّهُ جَاءَ بِنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبِلَ مِنَّا ذَلِكَ قَبِلْنَا ذَلِكَ مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ، وَتَرَكْنَاهُ وَأَرْضَهُ يَلِيهَا دُونَنَا، وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا، حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ.

(٢) محمد المثل الأعلى توماس كارليل[١٧٩٥-١٨٧١م] ص ١٢٩، ١٣٠ ط١، ٢٠٠٨م، ترجمة محمد السباعي، مكتبة النافذة، الجيزة.

ما أحوجنا إلى «صياغة الفرد صياغةً تقومُ على أساسِ إبرازِ خصائصِه الإنسانية العليا، وتطهيرِه من أدران الهبوط والإسفاف، والتجافي به عن كل ما يتنافى مع أصالة فطرته، وكمال إنسانيته، والسمو به فكرًا وروحًا وشعورًا وسلوكًا»[(١)].

ما أحوجنا إلى صناعة الأجيال صناعة ربانية، وفق منهج الخالق جل وعلا فهو خالقنا وهو مصلحنا، تأمل في خطاب الله لكليمه موسى ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، إن سورة الفاتحة تمثل المنهج والوسيلة، والزاد والطاقة، التي تصنع الإنسان صناعة ربانية.

لكن ثمّة محاولاتٍ مستميتةً لانتزاع الإنسان من إنسانيته وفصل المسلم عن دينه وتنحيته عن حياته، وتمييع شخصيته، أو تذويبها في قوالب غريبةٍ عن ديننا وقيمنا وأصالتنا وتاريخنا، بدعوى التحضُّر والتطُّور، أو تحت سياسة الدمج وشعار التغريب أو العولمة؛ لطمس معالم هذه الشخصية ومسخها، وإخراجها في صورةٍ مهلهلة مُزْرِيةٍ تُقَلِّد عن غير وعيٍ أعداءَ الإنسانيةِ وتسيرُ على غير هدى مترسمةً خطاهم، وتنهزمُ أمام أفكارِهم، وتنطرحُ على طريقهم، وترتمي في أحضانهم، وتنبطح أمام معاهدهم ومحافلهم، وتسلِّم لهم القياد في تبعيةٍ مُخزيةٍ وسلبيةٍ مُرْدِيَة، وتستورد القيم والأخلاق والقوانين والأفكار والرؤى من الغرب تارة ومن الشرق تارة أخرى، مجرِّبةً كل النظم والمناهج إلا النظام الرباني الذي شرعه الله وارتضاه.

---

(١) لمحات في الثقافة الإسلامية، عمر عبيد حسنة (ص: ٢٣١).

وأنى لهذه المساعي أن تحقق أهدافها وبين أيدينا حِصْنٌ متينٌ ونبراسٌ مبينٌ ودرعٌ حصينٌ، كتابُ ربِّنا عصمتُنا ونجاتُنا ومخرجُنا من هذا الليلِ الطويلِ، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣: ١٥٥]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ولسورة الفاتحة تأثيرٌ كبيرٌ في صياغة الشخصية المسلمة، فهي تمدُّنا ونحن نقرؤها ليلَ نهار بهذا الوقود الحيوي الذي ننطلق به نحو المعالي، وتزودنا بتلك الطاقة المتجددة التي تشحذ همتنا، وتقوي عزيمتنا، وتسمو بهمتنا، من خلال ما تغرسُه فينا من محبة الله وتعظيمه وتمجيده ومعرفته وعبادته، والاستعانة به وحده وطلب الهداية منه، والولاء لأهل الاستقامة والهداية، والبراء والحذر من أهل الجحود والغواية، وهي مفتاحٌ للشخصية المسلمة، يفتح مغاليقها ويصلحها، وهي زادٌ ونبراسٌ لنهوضها، ووقودٌ حيويٌّ لانطلاقها وارتقائها، وذلك بتلاوتها ومعايشتها وتدبُّرها. «ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا خير في فقه ليس فيه تفهم، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبر»[١].

(١) مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر المروزي (٢١٥).

إن تلاوة السورة وتدبُّرها واستجلاء معانيها واستنشاق عبيرِ لطائفها لذو تأثيرٍ عظيم على العقل والقلب، فهي لا تمنحنا فوائد معرفية أو حقائق يقينية فحسب، بل تفيض علينا بالتأثير القلبي والوجداني الذي ينعشنا ويحفزنا إلى الاستجابة لتلك المعرفة والامتثال لتلك القناعات، فنمتلك تحويل المعرفة إلى عمل وتطبيق، ليس مجرد معارف نظرية لا ينبثق عنها عمل.

نعم للمعرفة أهميتها ولكنها وحدها لا تكفي: «المعرفة العقلية -إذن- لا تكفي لحدوث الاستقامة والقيام بواجبات العبودية لله عز وجل، بل لابد وأن تتحول هذه المعرفة إلى إيمان عميق يرسِّخ مدلوله في القلب وينتصر على الهوى لينعكس أثره على السلوك. لابد من تعانق الفكر بالعاطفة لينشأ الإيمان بإذن الله، تأمل قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]. ولابد كذلك من استمرار هذا التعانق حتى يرسخ الإيمان في القلب ومن ثم يتمكّنُ من الانتصار على الهوى، ويظهرُ أثرُه على السلوك، وهذا يستلزمُ تغذيةً دائمةً لهذا الإيمان»[١].

(١) التوازن التربوي وأهميته لكل مسلم، الأستاذ مجدي الهلالي (ص: ١٩) بتصرف.

قال ابنُ القيم: «فعلى قدر المعرفة يكون تعظيمُ الربِّ تعالى في القلب، وأعرفُ الناس به أشدُّهم له تعظيمًا وإجلالاً»[١]. أما الذين حُرموا من التدبُّر: «فهؤلاء لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذتها ولا يتنعمون بها، وليست الصلاةُ قرةَ أعينِهم، وليست الأوامرُ سرورَ قلوبِهم وغذاءَ أرواحهم وحياتهم»[٢].

هذا وللأجواء أو المقامات التي تُقْرَأُ فيها السورةُ سيَّما الصلوات المشهودة، مع ما اشتملت عليه الفاتحة من طلب العون من الله والدعاء بالهداية أعظمُ الأثر في إصلاح النفس وتزكيتها، وفي تكرار هذه السورة في اليوم والليلة إرادةٌ وتصميمٌ من العبد على المضيِّ قُدُمًا في طريق الهداية والاستقامة، والإرادةُ هي الوقود اللازم لانطلاقة التغيير، فضلا عن اشتمالها على محاسبة للنفس أمام الخالق جل وعلا، هل تحققنا من هذه المعاني؟ هل حققنا هذه الأمور!

ولا شك أن إصلاح النفس وإعادة صياغة الشخصية الإنسانية وفق هداية القرآن هو السبيل لإصلاح المجتمع واستقامته ونهوضه، وهو أملنا في نهضة أمتنا وعودتها إلى سالف عزها وتليد ماضيها، يقول أبو الحسن الندوي رحمه الله: «يا أصحاب القلوب المؤمنة، أنتم المجتمع، في قسمات وجوهكم وضمائركم وعقولكم يرقد المستقبل الزاهر الذي نؤمله، فهيّئوا نفوسكم تهيئةً روحية خلقية، علمية إيمانية، هذا هو نداء الوقت،

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم (٢ / ٤٦٣).
(٢) مدارج السالكين (١ / ٨٦).

وواجب الساعة، وجهاد اليوم. أخشى أن كثيرا من الناس يهتمون بكل شيء غير نفوسهم، وهذا هو الواقع فعلا. أنا أفكر في العالم، ولكن أنا كذلك جزء منه، فلأصلح هذا الجزء، ولكني أرى كثيرا من إخواني لا يفكرون في نفوسهم، ويعتقدون أن العالم الإسلامي هو كلُّ ما يغايرُ نفوسَهم، علينا أن نصلحَ نفوسنا، وليعتقد كل منا أنه مسؤول، فإذا أصلحت هذه الأجزاء صلح العالم الإسلامي، إن مثلنا أيها الإخوة: كمثل ملك أعلن أنه يريد حوضا مملوءا باللبن «الحليب»، وأنه سيدفع الثمن لكل من يجلب الحليب، فقال أحد اللبانين: لو أفرغ لبان واحد سطلا من ماء، فإن هذا الماء لا يؤثر في الحليب الكثير، فأفرغ سطل ماء بدلا من حليب، وفكر آخر نفس التفكير، وهكذا سرت الفكرة بين الجميع، وجاء الملك في الصباح فوجد حوضا من ماء. هذه قصتنا. أن كل فرد منا يقول، إذا فَسَدتُ، فماذا يضرُّ العالم الاسلامي؟ وبهذا أصبح الفساد سائدا، لو فكرتم لرأيتم أن كل حديثكم عن غيركم[(١)].

(١) إلى الإسلام من جديد (ص: ١٦٥).



المبحث الأول: المقومات الأساسية للشخصية في ضوء سورة الفاتحة

1. الربانية.
2. الإيمان.
3. العبودية.
4. الهداية.

أولا: الربانية

يجدر بنا أن نعرف أمرين، معنى «رب العالمين»، ربوبية الله للعوالم، ماذا تعني؟ وكيف نتعمق في فهمها؟

ثم ماذا يعني وصف الشخص بالرباني؟ إنَّ أول ما يستفتح الله تعالى به فاتحة كتابه بيان استحقاقه للحمد، فهو تعالى ربُّ الأكوان، وهبها الوجود، ودبَّر حياة كل موجود. وربوبيتُه للعالم عامة وخاصة، ربوبية عامة تشمل المؤمن والكافر، المطيع والعاصي، فهو تعالى ربُّ كل شيء ومليكه وخالقه، ورازقه ومدبره، وربوبية خاصة لأهل الإيمان يربّيهم ويهديهم ويحفظهم ويعلّمهم ويرشدهم، ويشرِّع لهم ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، حينما يقرأ العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يدرك أن لهذا الكون خالقا مدبّرا، رازقا مقدِّرا يستوجب الحمد على ربوبيته لهذا العالم، ولكل العوالم المرئية وغير المرئية، المشاهدة والغيبية، هو وحده الذي يشرِّع لعباده، ومنه وحده العون والهداية، فهو جديرٌ بأن يتفرَّد بالحمد على كمال ربوبيته.

وحينما نلهج بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نقرُّ بأن الأمر أمرُه والحكمَ حكمُه، وأننا عبيدُه نمتثل أوامره، ونُصدِّق برسالاته، حياتنا كلُّها لله، وغايتنا رضاه.

ربوبية عناية وتدبير: فالخلق والرزق واللطف والتدبير والإحكام والتقدير من شواهد ربانيته لهذه العوالم.«قال بعض الخطباء: أشهد أن السموات والأرض آيات دالات وشواهد قائمات، كلٌّ يؤدي عنك الحجة ويعرب عنك بالربوبية، موسومة بآثار قدرتك ومعالم تدبيرك التي تجليتَ بها لخلقك، فأوصلتَ إلى القلوب من معرفتك ما آنسها من وحشةِ الفكر ورجمِ الظنون، فهي على اعترافها لك وذلّها إليك شاهدة بأنك لا تحيط بك الصفات ولا تحدُّك الأوهام، وأن حظَّ المفكر فيك الاعتراف لك»[(١)]، وفي خُطْبَتِهِ الْمَشْهُورَةِ يقول قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ: إن في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبرا، لَيْلٌ دَاجٍ، وَنَهَارٌ سَاجٍ، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَنُجُومٌ تُزْهِرُ، وَبِحَارٌ تَزْخَرُ، وَجِبَالٌ مُرْسَاةٌ، وَأَرْضٌ مُدْحَاةٌ، وَأَنْهَارٌ مُجْرَاةٌ[(٢)].

وديباجةُ سورة الفاتحة تعلمنا أن العوالم كلها مفتقرة لربها فهو خالقها ومبدعها وهو مدبّرها ومسيّرها، فشواهدُ الربوبية دلائلُ الوحدانية، ومن أقرَّ بربوبيته تعالى لهذا العالم يلزمه الإقرار بوحدانيته تعالى. نعمٌ وافرةٌ وآياتٌ مبهرةٌ وتدبيرٌ حكيمٌ وتصريفٌ عجيبٌ يشهد بتفضُّله تعالى على خلقه، وكثرة خيره لا ينصرف عنها إلا جاحدٌ. ربوبيته تعالى

(١) البيان والتبيين، للجاحظ (١ / ٥٨).

(٢) دلائل النبوة، للبيهقي (٢ / ١٠٨) والأغاني (١٥ /)٢٣٧.

تتجلّى في كل ما في هذا الكون من آيات في تعاقب الليل والنهار للراحة والسكون والحركة والمعاش، في تمهيد الأرض للعيش فهي قارَّةٌ لمن عليها مع دورانها حول نفسها مرةً كل يوم وانطلاقها السريع في دورة سنوية حول الشمس، في القبة الكبرى المنيفة المشيدة التي نراها زرقاء في النهار سوداء مظلمة في المساء، وقد تدلّت منها الكواكب كالثُّريا وتناثرت النجوم في أروع المشاهد التي نمتع بها ناظرينا كل يوم. شواهد الربوبية في تصويرنا البديع في الأرحام وتنقُّلنا من طورٍ إلى طورٍ في أحسن الصُّور، شواهد الربوبية فيما ساقه لنا ربُّنا من الطيبات التي نتلذذ بها ونقتات عليها، إنه الله تعالى خالقنا ورازقنا وحافظنا ومدبِّر هذا الكون ومصرِّفه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالحمد لله تعالى على ربوبيته للسماء والأرض ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦]؛ ربوبية لطفٍ وإحسانٍ وتدبيرٍ وتصريفٍ، وحفظٍ وإمدادٍ.

يقول ميربت ستانلي: «إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه ويدل على قدرته وعظمته. وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراساتها، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته. ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها،

ولكننا نرى آياته في أنفسنا وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود. وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته»[(١)].

سبحان الله ما أقرب هذا الكلام مما ذكره ابن القيم قال: «... وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ تَقِيَّ الدِّينِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ يَقُولُ: كَيْفَ يُطْلَبُ الدَّلِيلُ عَلَى مَنْ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؟ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ:

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَذْهَانِ شَيْءٌ إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ»[(٢)]

وما أروع تدبر مطلع سورة الفاتحة ونحن نتصفّح مشاهد الكون، فتتجلى لنا عظمة الله وجلاله وكماله وجماله، ونزداد تعظيما وإجلالا وخشية لربنا، ﴿ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

يقول برتا موريس باركر في كتابه ما وراء المجموعة الشمسية : «إذا أردت أن تعرف جانبا من عظمة الله تعالى فعليك أن تتأمل أولا في نفسك على الأرض، ثم فكِّر في الأرض باعتبارها جزءا ضئيلا من المجموعة الشمسية، ثم فكر في المجموعة الشمسية كلها باعتبارها جزءا ضئيلا من المجرة، وأخيرا فكِّر في مجرتنا باعتبارها واحدة من

(١) الله يتجلى في عصر العلم (ص: ٢٢) درس من شجيرة الورد كتبها: ميربت ستانلي عالم طبيعي وفيلسوف دكتوراه من جامعة بورتون - أستاذ سابق بإحدى كليات فلوريدا - عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية - أخصائي في الفيزياء وعلم النفس وفلسفة العلوم.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٨٢).

ملايين المجرات»[1]. «إن كل من أتيحت له الفرصة كي يطالع صفحة من هذا الكون، سيتعرف مصدقا أنه لا مبالغة في هذه الكلمات الإلهية وإنما هي تعبير بسيط عن الحقائق الموجودة فعلا »[2].

وفي تعمُّق نظرتنا لهذه العوالم التي تحيط بنا، ما يزيدنا عمقا في تدبّرنا لمطلع فاتحة الكتاب ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. فسعة معرفتنا بهذا الكون يعني سعة إدراكنا لمعاني الربوبية.

ربوبية رحمة ولطف: حين نشرع في القراءة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مع نظرة عميقة لهذا الكون العظيم ندرك أن ربوبيته تعالى لهذا العالم ربوبية رحمة، ولطفٍ، فالله لم يخلق الكون ويتخلى عنه كما يدعي بعض الملاحدة، بل هو الخالق المدبر المصرف الرحيم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، تأمّل في حياتنا على كوكب الأرض وكيف أن هذا الكوكب الذي نعيش عليه ويستوعبنا أحياء وأمواتا هو الكوكب الوحيد الآهل بالعيش دون ما حوله من كواكب ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥ - ٢٧] «يقول العلم لو كان حجم الأرض أكبر مما هو أو أصغر أو كان ثقلها وكثافتها أقل أو أكثر لاختلّ أمرُ الحياة أو تغيّر أو تشوّه، لأن حجمها متناسبٌ مع سرعتها، ومع دورتِها،

(١) ما وراء المجموعة الشمسية برتا موريس باركر ص ٢٩.

(٢) الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان (١/ ٨٤).

وثِقَلها متناسب مع قوة جَذبها، فلو زاد الحجم أو نَقص لتغيرت السرعة والمدة، ولو قلَّ جذبها لأفلت الأوكسجين منها. ولولا الدورة اليومية لما كان لنا ليل أو نهار دائبان ثابتان. ولو زادت سرعة دورانها حول نفسها عن ألف ميل في الساعة أو قلَّت كما هو الحال في بقية السيارات فكانت مثلا ١٠٠ ميل في الساعة لأصبح طول النهار ١٢٠ ساعة، فاحترقت زروعُنا في لهيب النار، وذَوَت في زمهرير الليل، ولاختلَّ ميزان العمل في النهار والراحة والنوم في الليل. ولكن هذه السرعة ثابتة لم يطرأ عليها تبديل في ثانية واحدة منذ ملايين السنين»[(١)].

ولولا الجاذبية التي تربطنا بالأرض، لطرنا عن ظهرها، وانتثرنا انتثارا، نحن وبيوتُنا وأمتعتُنا؛ فسرعة الدوران تؤدي إلى قوة الطرد[(٢)].

ويقول العلم إن سرعة الأرض في دورتها حول الشمس، وهي ١٨ ميلا في الثانية لو زادت أو نقصت ثانية واحدة في كل سنة بل في كل مئة سنة لاختل هذا النظام؛ لأن الدورة بمرور الملايين من السنين ستطول كثيرا أو تقصر، فيختل نظام الفصول الأربعة على الأرض باختلال مددها المحكمة ويختل نظام المطر العجيب. ولو كان الفلك الذي تدور به الأرض حول الشمس أطول مما هو أو أقصر كما هو الحال في بقية السيارات

(١) قصة الإيمان، نديم الجسر مفتي طرابلس ت ١٩٨٠م. ص ٣٢٠.

(٢) نفس المرجع ص ٣٢١ بتصرف يسير. زحل عن مكانه زحولا، وتزحل: تنحى وتباعد. الصحاح للجوهري (٥ / ٤٠١).

لوقع الاختلال في مدة الفصول ونزول الأمطار. ولو أن الأرض لم تكن حنواء - أي لو أن وضع الأرض على مدارها غير مائل بزاوية قدرها ٢٣ درجة لاختل نظام الفصول الأربعة المتناوبة على الأرض، ولأصبح وسط الأرض صحراء تحترق في صيف دائم، وأصبح شمالها وجنوبها مدفونين تحت ركام من الثلج. ولو أن درجة هذا الميل زادت عمّا هي عليه، لأصبحت المنطقتان المعتدلتان كالقطبين إما في ليل طويل وشتاء طويل، أو في نهار طويل وصيف طويل، فهذه الدرجة من الميل هي الدرجة المحكمة اللازمة لهذا التنظيم العجيب[(١)].

ولو كانت المسافة بين القمر والأرض أقل مما هي أو أكثر، أو كان حجمه أكبر مما هو عليه أو أصغر، أو كانت دورته أطول أو أقصر لاختل هذا النظام كله، بل ربما زال القمر كله، لأنه لو قرب من الأرض لزاد جذبه فأصبح المدُّ على الأرض طاغيا يغمر اليابسة كلها، وإن تزايد هذا القرب جذبته الأرض فوقع عليها، ولو بعد عن الأرض لتعطل عمل المد والجزر بقلة الجذب[(٢)].

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى

(١) قصة الإيمان، نديم الجسر ص ٣٢٢ بتصرف والحنواء التي بها تقوس وانحناء ومنه ناقة حنواء أي محدودبة.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٢٩.

ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج].

فإنزال الماء وإنبات النبات من لطفه تعالى بعباده ومن دلائل علمه تعالى بدقائق الأمور وبواطنها، وهو الغني عن خلقه المستحق للحمد لما اتصف به من صفات الكمال ولما أبدى من النعم وأسدى من الكرم، وتسخير ما في الأرض وإجراء الفلك في البحر وحفظ هذا الكون وانتظامه من رأفته تعالى بعباده ورحمته بهم.

وفي شهود معاني الربوبية ما يعينُ العبدَ على أن يكون ربانيًّا في غايته ووجهته، يتسامى بإباءٍ وارتقاءٍ، يسعى إلى تزكية نفسه وصياغة شخصيته وفق معايير الإسلام الأسمى وغاياته العليا، في ظل تصوره للكون والحياة وفهمه لمعاني الربوبية، يقول الأستاذ الندوي رحمه الله:

«لا بد أن ينبثق من تصور الإنسان للكون والوجود، الذي يعتمد على أن لهذا الكون إلهًا، وأنه ما من إله غيره خلق الكون وأوجده، وهذا الكون يسير بانتظام مذعنًا لأمر الله ومشيئته، والإنسان جزء من هذا الكون، خلقه الله بطبيعة متميزة لعبادته والانقياد لأمره ولا معنى لحياته إلا أن تكون خالصة العبودية لله، فالغاية البعيدة من مجهودات الإنسان ومساعيه في الدنيا هي ابتغاء وجه الله تعالى ونيل رضاه، وهذا هو المقياس الذي يقاس به في الإسلام كل عمل من أعمال الإنسان ويحكم عليه بالخير أو الشر»[(١)] .

(١) نظام الحياة في الإسلام، أبو الأعلى المودودي ص١٤.

والشخصُ الرباني غايتُهُ المنشودة رضا ربه، ومنهاجه دينُه الذي ارتضاه لعباده، وشعاره في هذه الحياة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فحياته كلها لله.

وإيمان العبد بربوبية الله للعالم مما يزيده تعظيما ومحبة لله، وإجلالا وتقديسا له، ورغبة ورهبة فيه، وخوفا ورجاء، وثقة ويقينا، وطمأنينة وثباتا، ورضا وتسليما،كلما قرأ الفاتحة يستشعر هذه المعاني، ويستحضرها، وتترسَّخ لديه، حين يعلم أن للكون ربًّا مدبِّرا حافظا، فيمسي ويصبح قرير العين مطمئن القلب، منشرح الصدر قوي الجِنان، حين يعلم بأن الله يتعهّد عباده المؤمنين بالرعاية والحفظ والهداية والتربية، حين يوقن أنه تعالى المشرِّع لعباده، فشريعته هي التي تجب أن تسود وكتابه رسائل لا بد من العمل بها، وتلك من ثمرات التدبر، أن يعيَ الناس معاني الربوبية ومقتضياتها.كما قال الحسن البصريُّ - رحمه الله -:

«إن من كَان قبلكم رأوا القُرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار»[1].

قال بعض العلماء:

«هذا القرآن رسائل أتتنا من قِبل ربنا عَزَّوَجَلَّ بعهوده نتدبرها في الصلوات ونقف

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٢٨.

عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات»[(١)].

قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

شخصٌ رباني: يشاهد معاني الربوبية وشواهدها في كل لحظة.

شخصٌ ربانيٌ: رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيا ورسولا وبالقرآن شرعة ومنهاجا.

شخصٌ ربانيٌّ: يوقن بآيات ربه ويسلم لتدبيره وحكمه.

شخص رباني: منسوب للرب، نسبة تشريف وتكريم، لأنه وهب حياته له، وتمثّل بشريعته. قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وروي عن ابن عباس وعن الحسن بن أبي الحسن وغيرهما أنهم قالوا: رِبِّيُّونَ معناه علماء، وقال الحسن: «فقهاء علماء»، قال أيضا: «علماء صبر»، وهذا القول هو على النسبة إلى الرب، إما لأنهم مطيعون له، أو من حيث هم علماء بما شرع[(٢)].

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (١ / ٢٨٥).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي أبو محمد عبد الحق بن غالب ت ٥٤٢، (١ /٥٢١).

شخص رباني: عالمٌ عاملٌ، عالمٌ لا يزال ينهل من معين العلم، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، فالمسلم يرقى بالعلم والعمل والتعليم والتعلُّم إلى هذا المقام الرفيع الذي ينعكسُ على شخصيته وسلوكه، ويتجلى في أقواله وأفعاله، فيتمثل المنهج الرباني في كل أحواله.

كلما قرأنا ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استحضرنا معاني الربوبية، وتذكرنا تلك السمة التي شرفنا الله بها أن أكون عبدا ربانيا، أصبغ حياتي كلها بصبغة الله.

ثانيا: الإيمان

الإيمان: شجرة طيبة باسقة، مثمرة مغدقة. والإيمان هو مطلق التصديق بما جاء به رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من عند ربه، وهو شامل للإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره حُلْوِهِ ومُرِّهِ إيماناً صادقاً واعتقاداً صحيحاً ويقيناً ثابتاً وعملا صالحا. قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والإيمان بالله تعالى ليس نظريات فلسفية يخوض فيها الفلاسفة، أو معارك كلامية ينبري لها المتكلمون، أو ثقافات نظرية يتداولها المثقفون، أو معارف مجردة، بل الإيمان تصديقٌ قلبيٌّ، وعقيدة خالصة، ومعرفة يقينية، الإيمان قولٌ وعملٌ، اعتقادٌ وانقيادٌ،

ضياءٌ وزادٌ، هُدى وبصيرة، سكينةٌ وطمأنينة، منهجٌ وسلوكٌ. إنه طريق النجاة ومنهجُ الحياة ونبراسُ الرُّقي، إنه الحارسُ الأمينُ الذي يدفع صاحبَه إلى كلِّ خيرٍ وبِرٍّ، ويمنعُه من كلِّ إثم وشرٍّ، فلا قيمة للحياة بلا إيمان، ولا وزن لأي عمل لا ينطلِقُ من ركيزةِ الإيمان قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

والإيمان نبراس مبين يضيء لصاحبه شتى دروبِ الحياة، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، قال ابن كثير: «هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا أي في الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله أي أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لإتباع رسله»(١).

«إن الإيمان نور: نور في القلب ونور في الجوارح، ونور في الحواس، نور يكشف حقائق الأشياء، والقيم والأحداث وما بينها من ارتباطات ونِسَب وأبعادٍ، فالمؤمنُ ينظر بهذا النور نور الله فيرى الحقائق، ويتعامل معها، ولا يخبط في طريقه، ولا يتعثر في خطواته. والإيمان بصرٌ: يمضي بصاحبه في الطريق على نور، وعلى ثقة، وفي اطمئنان. والإيمان ظلٌّ ظليلٌّ، تستروحه النفس ويرتاح له القلب، ظلٌّ من هاجرة الشك والقلق، والحيرة في

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ١١٠٧.

التيه المظلم بلا دليل. والإيمان حياة: في القلوب والمشاعر، حياةٌ في القصدِ والاتجاهِ.. كما أنه حركةٌ بانيةٌ، مثمرة، لا خمود فيها، ولا همود، ولا عبث فيها ولا ضياع »[١].

«إن الإيمان ينشئ في الإنسان ضميرًا واحدًا لا يعتريه ضعفٌ أو انهزام، ولا يتبدل وفق تبدلات الزمان والمكان، ولا يتكيف بحسب البيئة والنظم، ولا يتعطل تحت ضغط الأهواء والشهوات، إنه في يقظة دائمة وتنبه مستمر، يرصد نوازع الشر، ويحذر خداع النفس، ويبين حقيقة الهوى، ويرقب نزغات الشيطان»[٢].

فالإيمان يصنعُ من صاحبِهِ شخصيّةً فريدةً متميِّزةً:

«إن معرفة الله المستنبطة من علم الكلام ليست هي المعرفة الكاملة، ولا تورث الاطمئنان القلبي. في حين أن تلك المعرفة متى ما كانت على نهج القرآن الكريم المعجز، تُصبح معرفة تامة، وتَسْكُب الاطمئنان الكامل في القلب. إن المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم مع الله»[٣].

والإيمان الذي تغرسه وترويه وتتعهده سورة الفاتحة هو: «الإيمان الصادق الذي يقر

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٦٦ بتصرف يسير.

(٢) لمحات في الثقافة الإسلامية (ص: ٢٢٥)، عمر عودة الخطيب.، و«المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية» للمؤلف ص٢٠٢.

(٣) المكتوبات، بديع الزمان النورسي (٤٢٥ ـ ٤٢٦) باختصار وتصرف يسير.

في القلب تصديقاً ويقيناً، ويفيضُ على الجوارح سلوكاً وعملاً، إنه الإيمان الذي يضيء القلب، ويحرك الإرادة، ويوجِّهُ العقولَ، ويوظفُ الطاقات ليكون صورة عملية واقعية يتجلى فيها ليثبت وجوده، ويترجم عن حقيقته، إنه الإيمان الذي يصلح القلوب، ويهيئ النفوس، ويصنع العجائب وينشئ الإنسان خَلْقاً آخر، ويصبّه في قالب جديد يغيِّر هدفه ويهذِّب سلوكَه وذَوقَهُ ونظرته للحياة»[(١)].

فبالإيمان حياة القلوب ونور البصائر وجلاء الأفهام وبه تسمو الأرواح وتتآلف، وتتفتق الأذهان وتتوقد القرائح وتنشط الجوارح، وتعلو الهمم، وتنهض الأمم، فكلما ضعُفت إرادةُ العبد، ووهنت قواه وكَلَّ جهدُه في السعي إلى المعالي، أمدّه هذا الإيمان الصادق بالزاد الروحيِّ وأذكى في فؤاده روحَ المثابرة وأشعل في قلبه وَقودَ الانطلاق، وكلما أحاطت به المخاوف كان هذا الإيمان ملاذا آمنا، وحصناً حصيناً، يفيء إليه المؤمنُ، فيطمئن قلبُه، وتسكنُ نفسُه، والإيمان سرُّ التفوق وإكسير النجاح، بالإيمان يرقى وينهض، فهو زاد القلوب وضياء العقول ونور البصائر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

والمؤمنون أفضل الخليقة، لأنهم حققوا لأنفسهم معنى الإنسَانية التي شرفهم الله بها؛ بمعرفتهم الحق واتباعهم له، وبالعمل الصالح وتحصيل الفضائل نالوا معالي الرُّتب،

(١) خصائص المجتمع الإسلامي للأستاذ محمد عبد الله الخطيب ص ١٨، ١٩ بتصرف.

وتزيَّنوا بالفضيلةِ وتمسَّكوا بالقيم التي جعلها الله سياجًا للناس وسراجًا، فضربوا أروع أمثلة للإنسانية، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

الإيمان مفتاح الشخصية، وأول معالمها، يقول الدكتور يوسف القرضاوي: «طالما قلت، وسأظل أقول إن مفتاح شخصية هذه الأمة ومصدر طاقاتها هو الإيمان الذي جعل هذه الأمة من قبل خير أمة أخرجت للناس، وحقق لها النصر على أعظم الإمبراطوريات في الأرض على الرغم من قلة عددها وضعف عدتها، وبهذا الإيمان انتصرت بعد هجمات التتار الزاحفين من الشرق، والصليبيين الزاحفين من الغرب، وبه تستطيع اليوم الانتصار على ورثة هؤلاء وهؤلاء»[١].

فالإيمان هو الأساس الذي يقوم عليه صرحُ الصلاح والرشد والتُّقى، إن المؤمن تنمو وتزكو أعماله كما يخضر ويورق ويثمر ما يغرسه البستاني من أشجار في أخصب أرض وأجود هواء.

وسورةُ الفاتحة تستوعب مع إيجازِها أركانَ الإيمان، تبيِّنُه وترسِّخُه، تروِي شجرتَه الطيبةَ وتتعهدها؛ لتتغلغل جذورُها في قلب المؤمن، وتمتدَّ أغصانُها وتخضرَّ أوراقُها فتزهِرُ وتُثْمِر.

(١) أين الخلل للدكتور / يوسف القرضاوى ص ٢١.

نقرأ في الفاتحة الإيمان بربوبية الله، ذي المجد والكمال والعظمة والجلال، واستحقاقه الحمد.

والإيمان بالعوالم التي خلقها ربُّنا الغيبية والمشاهدة ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والإيمان بالرسل والكتب،كما يتجلى في ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

والإيمان بالقدر، فالله -تعالى- رب العالمين مدبِّر هذه العوالم، فهو المعين وهو الهادي وهو المنعم.

وكذا الإيمان بالملائكة حين نستشعر تأمينهم حين نختم بـ «آمين» في انسجامٍ معنا.

وهكذا يعيشُ قارئُ الفاتحة في أجواءٍ إيمانية تتجدد مع كل تلاوةٍ وتدبُّرٍ، تشحذُ طاقته، وتعمرُ قلبه، وتمدُّه بالزاد، وتحفِزُه على العمل الصالح الذي يعود بالخير له ولمجتمعه، وتحصِّنُه من الفتنِ والأهواءِ، والأباطيل والأوهام، فكلما قرأنا الفاتحة حلَّقنا في هذه الأجواء الإيمانية، طوّفنا بأركان الإيمان كلها، زاد رصيدُنا الإيمانيُّ تحقيقا لقول ربنا ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

إن لكل سورة قرآنيةٍ سَمْتَها في عرضِ العقيدة، وتلك هي الركيزةُ الأساسيةُ للقرآن الكريم والمقصودُ الأولُ من نزوله، والمتدبر لسورة الفاتحة يلحظُ سِمَتها الفريدة في عرض عقيدة التوحيد وتقريرها، وكيف جمعت السورة الكريمة بين العلم والإيمان، بين المعرفة واليقين، بين الاعتقاد والسلوك، بين المحبة والتعظيم، بين الرجاء والخوف، بين الرغبة

والرهبة، بين الجلال والجمال، بين الوسيلة والقصد، بين العبادة والاستعانة، بين الولاء والبراء، بين الهداية والإنعام وما يقابلهما، بين حقِّ الله وحقِّ العباد، بين أسماء الله الجامعة وحظ العبد منها.

فقراءتنا لهذه السورة ترفع رصيدنا الإيماني، مزيدا من اليقين، مزيدا من الثبات على الحق، مزيدا من الرضا والتسليم بأقدار الله، مزيدا من القوة والصلابة والصمود أمام المصاعب والتحديات التي لا سبيل لمواجهتها إلا بدرع الإيمان، مزيدا من الطاقة والهمة للنهوض والارتقاء، كما قال ربُّنا جلَّ وعلا: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

سورة الفاتحة تروي شجرة الإيمان في قلوبنا وتنمّيها، سورة الفاتحة تجدد عهدنا بالإيمان، وتذكِّرنا به، حيث نتدارسه كلما قرأناها، ونستحضر معانيه ونعيشه فكرا وشعورا في رحابها، سورة الفاتحة تمنحنا الطاقة الإيمانية المتجددة والرؤية الإيمانية المبصرة التي نمضي بها قُدُما على طريق الحق، كلما قرأناها واستوقفتنا تلك المعالم الإيمانية فيها، مما يقوي يقيننا وتوكلنا على ربنا ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

سورة الفاتحة : تصوغ تلك الشخصية المؤمنة التي تتميّز عن غيرها بإيمانها ومعرفتها وبصيرتها وصدقها.

- شخص مؤمن: يتجلى فيه الإيمان واقعًا وسلوكًا.

- شخص مؤمن: يقترن إيمانه بالعمل الصالح الذي لا يفترُ عنه.
- شخصٌ مؤمن: يحب الخير للآخرين، وهو سِلْمٌ لعباد الله.
- شخص مؤمن ينتمي لأهل الإيمان، ويبرأ من الضلال والانحراف.
- شخصٌ مؤمن: محصَّنٌ بإيمانه من الآفات والعلل والانتكاسات.

ثالثا: العبودية

فاتحة الكتاب متضمِّنةٌ لأجلِّ الغايات وأعظم الوسائل، فأجلُّ الغايات عبادة الله، وأفضل الوسائل معونته، فحينما نقرأ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ندركُ أن مهمة العبد ووظيفته الأساسية في هذا الكون ومحور حياته عبادة الله - تعالى - وحده، ودلَّ تقديم المفعول ﴿إِيَّاكَ﴾ على الاختصاص فلا معبود سواه تعالى[(١)].

والعبودية هي مطلق الطاعة لله تعالى، فتشمل العبادات كالصلاة والزكاة والصوم والحج والدعاء والذكر، وتشمل غيرها من وجوه الخير، فطلب العلم النافع عبادة والجهاد عبادة والعمل الصالح الذي يعود بالنفع للمجتمع عبادة، بل حياة الإنسان كلُّها عبادة،

(١) قال ابن كثير: «... وقدم المفعول، وهو إياك وكرره للاهتمام والحصر، أي لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة، والدين يرجع إلى هذين المعنيين». وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالأول: تبرؤٌ من الشرك، والثاني: تبرؤٌ من الحول والقوة. والتفويض إلى الله عز وجل، وهذا المعنى في غير ما موضع من القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ٢٣].
تفسير ابن كثير ١ / ٢٥

يقظتُه ونومُه، فراغُه وشغلُه، صحتُه وسقمُه، أفراحُه وأتراحهُ، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، إن المؤمن يستحضر رسالته في هذا الوجود، يتذكر مهمته التي من أجلها خُلقَ، ينشدُ غاية وجوده كلما قرأ سورة الفاتحة؛ ليظل على يقظةٍ ووعي وإدراكٍ لمهمته ورسالته، فإذا كانت العبادة محور حياة المسلم ورسالته عاش مطمئن القلب، هادئ البال، طيِّب النفس، مستقيما على طريق الحقِّ، يحققُ التقدمَ المنشود والنهوضَ المأمولَ والرُّقي الذي يتطلع إليه. يلهج دائما بـ «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالعبادة نزهة القاصدين، ومستروح المريدين، ومَرْبع الأنس للمحبين، ومرتع البهجة للعارفين. بها قُرَّةُ أعينهم، وفيها مسرّة قلوبهم، ومنها راحة أرواحهم. وإليها أشار صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «أرِحنا بها يا بلال»[1] »[2].

إن إخلاص العبادة وتوحيدها يعني توحيد الغاية، وتوحيد المنهج، وتوحيد المرجعية، فلا يعاني المؤمن ذلك التشتت والاضطراب الذي يعانيه غيرُه، ولا يشعر بتناقض أو ازدواجية بين قلبه وعقله، ولا يجد انفصاما بين عقيدته وسلوكه.

إننا في كل قراءة للفاتحة نراجع أنفسنا ونعرض أعمالنا على كتاب الله: هل قمنا بواجب العبادة؟ هل عبدنا الله حقًّا وصدقًا!

---

(١) رواه أبو داود في سننه في كتاب الأدب، ورواه أحمد في مسنده (٥/ ٣٦٤)، والطبراني في المعجم الكبير برقم (٦٢١٥) ٦/ ٢٧٧.

(٢) لطائف الإشارات للإمام القشيري ١/ ٤٩ باختصار.

قال الحسن: «رَحِمَ اللهُ عَبْدَاً عَرَضَ نَفْسَهُ، وَعَمَلَهُ عَلَى كِتَابِ اللهِ، فَإِنَّ وَافَقَ كِتَابَ اللهِ حَمِدَ اللهَ، وَسَأَلَهُ الزِّيَادَةَ، وَإِنْ خَالَفَ كِتَابَ اللهِ أَعْتَبَ نَفْسَهُ، وَرَجَعَ مِنْ قَرِيبٍ»[١].

وبحق عبادتنا لربنا بحق قوة الإرادة والصمود ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

بحق الاستجابة لله والمتابعة على أحسن الوجوه ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨].

حينما نناجي ربنا في كل صلاة ونبتهل إليه قائلين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن هذا يقتضي إخلاصنا وتجرُّدنا لله.

يقتضي تجديد العهد، ومحاسبة النفس هل نحن حقا عابدون!

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فيا ويح من يكذب على ربه وهو يناجيه فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وإنما يقصد غيره بالعبادة، يتعهد لربه ويناجيه: لا أعبد إلا أنت وهو خائن لعهده، إلا أن يقصد بكلامه الدعاء والطلب للتوفيق والإعانة»[٢].

(١) أخلاق حملة القرآن للآجري (ص٤).

(٢) بدائع التفسير ١ / ٢١٠ .

إن لعباد الرحمن شخصية متميزة بارتقائها وتساميها، متميزة بأخلاقها وسلوكها، متميزة بتعاملها وتصرفاتها، متميزة بطبيعتها بل وردود أفعالها شخصية متميزة بتعبدها وخوفها ورجائها، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٧٦].

إن قراءتنا للفاتحة مراجعة مستمرة لحالنا في العبادة؛ إذ كلما قرأنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نتذكر هل حققنا عبوديتنا لله كما ينبغي؟ هل ظهر أثر ذلك على حياتنا!

إن العبادة هي زادنا ونبراسنا نحو الارتقاء بأنفسنا نحو المعالي والقمم.

رابعًا: الهداية

إن الدعاء الحصري الصريح في هذه السورة، والمطلب المباشر هو طلب الهداية من الله تعالى إلى صراطه المستقيم، ولا شك أن الهداية نعمة من الله وتوفيق منه لا تنال إلا لمن طلبها بصدق، والهداية نور وبصيرة تكشف لصاحبها طريق الحق ومنهج الاستقامة، وتجعله قادرا على تمييز الحق من الباطل والبدعة من السنة والزيغ من الانحراف، ويهتدي للمنهج الأقوم في أمر دينه ودنياه فتراه موفّقا راشدا في سائر أحواله، وتراه معتدلا في سائر أموره فلا شطط ولا انحراف، ولا غلو ولا تقصير، ولا إفراط ولا تفريط، شخص سوي في فكره وسلوكه، لأنه يطلب الهداية من الله عشرات المرات في صلواته ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.



المبحث الثاني: السمات الفردية للشخصية المسلمة كما تصوغها السورة

حين نمعنُ النظرَ في هذه السورة الكريمة ندرك كيف تصوغ معالم الشخصية المسلمة: الرائدة القائدة، السويَّة المتوازنة المبدعة، الإيجابية المتعاونة، الطموحة الراقية، المثقفة الواعية، الرحيمة العادلة، وفيما يلي نقف على هذه المعالم في ضوء هذه السورة الكريمة:

1. شخص رحيم.
2. شخصٌ عادلٌ .
3. شخصٌ حرٌّ أبيٌّ.
4. شخصٌ طموحٌ راقٍ.
5. شخص وسطي معتدل.
6. شخصية سوية
7. شخصية قوية ثابتة.
8. شخصية متميزة مبدعة.
9. شخص واعٍ، حَسَن الفهم.
10. شخصٌ مثقَّفٌ مرهف الحسِّ.

أولا: شخصٌ رحيمٌ

أول صفة إلهية استفتح الله بها كتابه صفة الرحمة، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقد استوقف الاسمان الجليلان عامةَ المفسرين واستفرغوا جهدهم في بيان الفرق بين الاسمين، على أقوال عديدة، منها: أن الرحمن في الدنيا والرحيم في الآخرة، الرحمن بالمؤمن والكافر والبر والفاجر، الرحيم بعباده المؤمنين. ولا شك في أن ورود اسمين جليلين يجتمعان في وصفٍ واحدٍ، وهو الرحمة ما يقرِّر ويؤكد رحمة الله - تعالى - بعباده المؤمنين، قال ابن عباس: »ذكر أحدهما بعد الآخر تطميعا لقلوب الراغبين إليه «، وعَنِ الضَّحَّاكِ فِي قَوْلِهِ:

﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ: الرَّحْمَنِ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ، وَالرَّحِيمِ بِالْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً[١].

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إن الله قد خصَّ المؤمنين من رحمته في الدنيا والآخرة، مع ما قد عمَّهم به، والكفارَ في الدنيا من الإفضال والإحسان إلى جميعهم، في البَسْط في الرزق، وتسخير السحاب بالغَيْثِ، وإخراج النبات من الأرض، وصحة الأجسام والعقول، وسائر النعم التي لا تُحصى، التي يشترك فيها المؤمنون والكافرون. فربُّنا جل ثناؤه رحمنُ جميع خلقه في الدنيا والآخرة، ورحيمُ المؤمنين خاصةً في الدنيا والآخرة»[٢].

وفي ذكر اسم الله الرحمن الرحيم ترغيبٌ للمؤمنين في التعرُّضِ لرحماتِ اللهِ تعالى واستجلابِها بالطاعاتِ والقُرُباتِ، وبالتراحُم فيما بينهم، ولقد بيَّن الله ذلك في كتابه الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٧١] فإن الإيمان والإخاء والتناصح والطاعة

(١) معالم التنزيل للبغوي (١ / ٧١) وتفسير ابن أبي حاتم (١ / ٢٨). ويراجع جامع البيان للطبري (١ / ١٢٧). و الضَّحَّاكُ: الضحاك بنُ مُزَاحِمِ الهِلاَلِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ، وَقِيْلَ: أَبُو القَاسِمِ، صَاحِبُ (التَّفْسِيْرِ) ت (١٠٦). سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٤ / ٥٩٨).

(٢) جامع البيان (١ / ١٢٨).

والاتباع من الأسباب الجالبة لرحمة الله، وفي القرآن آيات كثيرة تبين موجبات رحمة الله تعالى. وفي السنة النبوية ربطٌ بين رحمة الله وبين التراحم بين العباد وصلة الأرحام، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ: أَنَا الرَّحْمَنُ وَهِيَ الرَّحِمُ، شَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنَ اسْمِي مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ»[١].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[٢]، فحظُّ العبد من الاسمين الجليلين أن يمتلئ قلبُه رجاءً وطمعا في رحمة ربه وأن يزداد محبةً له وشوقا للقائه، وأن يتخلّق بخُلُق الرحمة مع عباد الله.

والمتدبِّرُ في السورة الكريمة يزداد بقراءتها رقَّةً ورحمةً ولطفا، كلما نطق لسانه أو لامسَ فؤاده ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وباستحضار واستشعار رحمة الله كلما قرأنا الفاتحة ما يزيدنا بهجة وأنسا وطمأنينة وبِشرا، وفي تكرار الاسمين الجليلين بتدبُّرٍ وخشوعٍ استمطارٌ واستجلابٌ لرحمة الله تعالى، بالدعاء والعمل.

(١) رواه أبو داود في السنن (٢ / ٥٨) باب فِي صِلَةِ الرَّحِمِ حديث ١٦٩٦ ورواه أحمد في المسند (١ / ١٩١) وإسناده صحيح.

(٢) رواه أبو داود في السنن باب في الرحمة (٤ / ٤٤٠) ح والترمذي في السنن أَبْوَابُ البِرِّ وَالصِّلَةِ بَابُ مَا جَاءَ فِي رَحْمَةِ المُسْلِمِينَ (٣ / ٣٨٨) ٤٩٤٣ وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

واستحضار اسم الله الرحمن الرحيم مما يزيد العبد ثقةً واطمئنانا لأقدار الله، فيعلم أن الله تعالى رحيم به في كل أحواله، رحيم به في السراء رحيم به في الضراء رحيم به في الصغر رحيم به في الكبر، وصدق الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [بالنساء: ٢٩]، فليعلم القانط من رحمة الله اليائس من الحياة أن الله رحيم بعباده لطيف بهم، فاستشعار رحمة الله تعالى تدفع اليأس وتزيل القنوط من قلوب اليائسين المحبطين الذين لو تفكروا لوجدوا أن رحمات الله كانت ولا تزال تغمرُهم في كل وقت وحين، فالله تعالى رحيم بالمبتلى رحيم بالمعافى، رحيم بالفقير رحيم بالغني، رحيم بالقوي رحيم بالضعيف، رحيم بالسليم رحيم بالمريض، رحيم باليتيم، رحيم بالأرملة، رحيم بالثكلى، رحماته تغمرنا وتشملنا وتحيطنا.

قال ابن القيم عن شيخه ابن تيمية رحمه الله: «ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]. وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيًشا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا وأقواهم قلبًا وأسرهم نفسًا تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب

انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها. وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. وقال آخر: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره أو نحو هذا، وقال آخر: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا. وقال آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب»[(١)].

كذلك استشعار العبد رحمة الله في أحكامه مما يزيده ثقة وطمأنينة لشريعة الرحمن وحرصا على الامتثال لها فهي من مظاهر الرحمة، بل الشريعة كلها رحمة، كلها خير، كلها رعاية لمصالح العباد العاجلة والآجلة، كلها تخفيف وتيسير، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨].

وقد أدركت الصحابيات الفضليات هذا المعنى الجليل عند مبايعتهن للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فعَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا أَنَّهَا قَالَتْ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فِي

(١) الوابل الصيب لابن القيم ١ / ٦٧.

نِسْوَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ نُبَايِعُهُ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ نُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لاَ نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا وَلاَ نَسْرِقَ وَلاَ نَزْنِيَ وَلاَ نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا وَلاَ نَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ قَالَ: «فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ». قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا هَلُمَّ نُبَايِعْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ...»[1].

وفي قولهن «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا» ما يدل على إيمان النسوة وتسليمهن بأن ما قضى الله ورسوله في أمرهن فيه الخير والبركة والرحمة.. فكلما اقترنا والتصقنا بشريعة الرحمن تحتوينا الرحمة وتضمُّنا، وكلما ابتعدنا عنها كان الشقاء والحرمان، حال الطفل مع أمه إذا ابتعد عنها وحُرم منها عاش شريدًا محرومًا، وفي الصحيحين عَنْ عُمَرَبْنِ الْخَطّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ قد فُرِّقَ بينها وبين ولدِها، فجعلت كُلَّمَا وَجَدَتْ صَبِيًّا من السَّبي أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بصدرِها وهي تدورُ على ولدِها، فلما وجدته ضمَّتْهُ وألقمتْهُ ثديَها، فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ»؟ قالوا: لا يا رسولَ الله، قال: «فو اللَّهِ: للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا »[2].

(١) حديث صحيح: رواه النسائي في السنن: كتاب البيعة باب بيعة النساء ٧ / ١٠٥ الحديث رقم: ٤١٨١. ورواه الترمذي في السنن وقال: وفي البَابِ عن عَائِشَةَ وعبدِ اللهِ بن عمرو وأسماءَ بنتِ يزيدَ، وهذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ... كتاب السير. باب ما جاءَ في بَيْعَةِ النِّسَاءِ حديث ١٦٤٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صحيح البخاري - ك الأدب باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته. في الحديث ٥٦٥٣، ورواه مسلم في صحيحه عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صحيح مسلم كتاب التوبة باب في سعة رحمة اللهِ تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ٢٢- (٢٧٤٥).

حينما نقرأ سورة الفاتحة تتدفق هذه المعاني في خواطرنا. كذلك رحمة الله تعالى في تدبيره لهذا الكون العظيم ولطفه بنا وحفظه لنا من المخاطر والأهوال التي تحدّق بنا لولا رحمته بنا، تأمل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]، وتلك رسالة قرآنية تبثُّ الطمأنينة في قلوب الإنسانية التي أفزعتها المخاوف وهالتها الهواجس وأرهبتها التصورات المزعجة وأقلقها الخوف من المجهول - على حد تعبيرهم - حتى باتت حياتهم قلقا وأرقا وهمًّا وغمًّا واكتئابا ورهابا، أما المسلم فإنه يشعر بالأمان ويمتلئ بالسكينة لأنه يوقن برحمة الله ويشعر بها دائما، فلا يلقي بالا لتلك المخاوف ولا يلتفت لتلك الهواجس، ينامُ قرير العين، ويصحو طيِّبالنفسِ، لسان حاله يقول مستبشرًا:

وإذا العنايـة لاحظتـك عيونـها ... نـم فالمخـاوفُ كلُّهـن أمـان

حتى ولو حدَّقت به الأهوال وحاصرته المخاطر وأحاطت به المكائد فإنه على بيِّنةٍ من ربهِ على يقينٍ من حفظه ونصره، قال أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نظرتُ إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه

أبصرنا تحت قدميه! فقال «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما!»(١). وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

رسائل الطمأنينة

كثيرا ما تنمُّ كتابات الباحثين عن الكون ربما عن رعب وعن قلق وهواجس وأوهام وخيالات، ومصدر ذلك البعدُ عن الإيمان والحرمان من هداية القرآن رسالة الله الخاتمة للإنسان. من مظاهر ذلك: الخوف من غزو للكون من كائنات تسكن كواكب أخرى، والخوف من اصطدام كوكب بكوكب أو سقوط مذنب، والخوف من جفاف الأنهار، وما يروّج منذ عقودٍ عن حرب المياه، ونفاد الغذاء أو نقصانه، والخوف من تآكل اليابسة وسطوة البحار، وغرق المدن والقرى والحقول، وغير ذلك من المخاوف والهواجس التي يرددها العوامُّ وتثيرُها وسائلُ الإعلام، والتي تدلُّ عن غفلةٍ وجهلٍ بمقام الله تعالى وعنايته وحفظه لخلقه، وربما تؤدي إلى اضطرابات في شخصية الإنسان، وقلقٌ واكتئابٌ.

وقد قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ

(١) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: سورة براءة، رقم ٤٣٨٦، وأخرجه مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، رقم ٤٣٨٩.

رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]، فدلت الآية الكريمة على عظيم اعتناء الله بخلقه، ولطفه بهم، وجاء ختام الآية مؤكدا رأفته ورحمته تعالى بالناس. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١]. فلو اختلّ النظامُ طرفةَ عين لفسدت السموات والأرض وعمَّ الدمار ولكن الله لطيفٌ بالعباد. قال القشيري: أمسكهما بقدرته، وأتقنهما بحكمته، وزيّنهما بمشيئته... فلا شبيه في إبقائهما وإمساكهما يُسَاهِمُه، ولا شريك في إيجادهما وإعدامهما يقاسمه. [1].

ويقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، فالله تعالى لا يغفل عن الخلق طرفةَ عينٍ.

من هنا يصوغ الإسلام من المؤمن شخصية مطمئنة آمنة، انطلاقًا من إيمانها برحمة رب العالمين. ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

إن الرحمة ينبوع الفضائل وملاكُ الشمائل، عنها تتشعَّب ولذلك كثرت الآيات التي وصفت لنا رحمة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ باعتبارها العنوان الرئيسي لأخلاقه قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

(١) لطائف الإشارات (٣ / ٢٠٩) باختصار.

قال أحد الأدباء: «لو تراحم النَّاس لما كان بينهم جائع، ولا مغبون، ولا مهضوم، ولأقفرت الجفون من المدامع، ولاطمأنت الجنوب في المضاجع، ولمحت الرَّحْمَة الشقاء من المجتمع، كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام.أيُّها الإنسان ارحم الأرملة التي مات عنها زوجها، ولم يترك لها غير صبية صغار، ودموع غزار، ارحمها قبل أن ينال اليأسُ منها، ويعبث الهمُّ بقلبها، فتؤثر الموت على الحياة. ارحم الزوجة أم ولدك، وقعيدة بيتك، ومرآة نفسك، وخادمة فراشك؛ لأنَّها ضعيف؛ ولأنَّ الله قد وكل أمرها إليك، وما كان لك أن تكذب ثقته بك .ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه، ونفسه، فإنَّك إلا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين. ارحم الجاهل، لا تتحيّن فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه، فتجمع عليه بين الجهل والظلم، ولا تتخذ عقله متجرًا تربح فيه، ليكون من الخاسرين.ارحم الحيوان؛ لأنَّه يحسُّ كما تحسُّ، ويتألم كما تتألم، ويبكي بغير دموع ويتوجع .ارحم الطير لا تحبسها في أقفاصها، ودعها تهيم في فضائها حيث تشاء، وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير، إنَّ الله وهبها فضاء لا نهاية له، فلا تغتصبها حقها، فتضعها في محبس لا يسع مدّ جناحها، أطلق سبيلها وأطلق سمعك وبصرك وراءها، لتسمع تغريدها فوق الأشجار، وفي الغابات، وعلى شواطئ الأنهار، وترى منظرها وهي طائرة في جو السماء، فيخيَّل إليك أنَّها أجمل من منظر الفلك الدائر، والكوكب السيَّار. أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء، امسحوا دموع الأشقياء، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[١].

(١) مؤلفات مصطفى المنفلوطي الكاملة، النظرات، ص ٨٨.

ثانيا: شخصٌ عادلٌ

ما أحوجَنا إلى العدل! فهو صمامُ الأمان في المجتمعات؛ فالعدلُ أساسُ الملك وحصن المدائن والثغور، وميزان الحكم بين الناس، من أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، وبه يتحقق الإنصاف وتوفَّى الحقوق وينتصر للمظلوم، وفي كنفه يأمنُ الصغير ويركنُ الكبير، ويحتمي الضعيف، وبالعدل يأمن الإنسان على نفسه وماله وأهله، وتنبسط السكينة في المجتمع وفي جوِّ الأمان والطمأنينة يعمل الناس بهمةٍ وثّابة لنيل المطالب وبلوغ المراتب، وتتفتق المواهب وتتوقّد القرائح في جوٍّ يسوده الحبُّ والوئام، لا مكان فيه لضغائن وأحقاد، ولا لمحسوبية أو وساطة أو مجاملة على حسابِ الحقِّ، فالكلُّ قريرُ العين قانعُ النفس هادئ البال.

لقد فرق القرآن الكريم بين شخصيتين: شخصية عاجزة سلبية تمثّلُ عبئا على الآخرين، وشخصيةٌ إيجابية تحثُّ على العدل مع استقامتها على الطريق الحقِّ، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النحل: ٧٦].

وسورة الفاتحة ترسِّخُ قيمةَ العدلِ بطريقةٍ فريدةٍ، تأمَّلْ قولَهُ تعالَى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فإن وجودَ هذا اليومِ دليلٌ على العدل الإلهي ودافع إلى تحقيق العدالة في الدنيا قبل الحساب في الآخرة، وإن تفرُّدَه تعالى بمِلك هذا اليوم والمُلك فيه، كما تفيده

القراءتان المتواترتان ﴿مَلِكِ﴾، ﴿مَالِكِ﴾[1] مما يزيدُ المؤمن يقينًا بالعدل المطلق في هذا اليوم العظيم، فالملك في هذا اليوم لله تعالى، والعظمة والسلطان لله وحده، كما يفيد إضافته للدين أي الحساب وما يقتضيه من جزاء وهو الغاية من هذا اليوم، لإقامة موازين العدل، وإنصاف المظلومين، والتنكيل بالظلمة والمجرمين، وإثابة الطائعين، وفي هذا ما يزيدُ المؤمن يقينا بالعدالة المطلقة في هذا اليوم، وفيه تذكيرٌ وتحذيرٌ لكلِّ من ظلم أو استبدَّ أن يراجع نفسه ويتوب لربه. ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟»[2].

وعن ابن عباس: ﴿مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: يوم حساب الخلائق، وهو يوم القيامة، يدينهم بأعمالهم، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا، إلا من عَفا عنه، فالأمرُ أمرُه.[3]

فيأتي التعبير عن يوم القيامة بـ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الحساب والقصاص والجزاء. والاقتران بين رحمة الله تعالى ومُلكه المطلق لهذا اليوم تثبيتٌ للمؤمنين، وتشويقٌ

(١) قرأ عاصم والكسائي: ﴿مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بألف، وقرأ الباقون ﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بغير ألف. السبعة في القراءات (١ / ١٠٤)، والحجة في القراءات السبع (١ / ٦٢).
(٢) رَوَاه الْبُخَارِيُّ في صحيحه كتاب الرقاق بَابٌ: يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ حديث ٦٥١٩
(٣) جامع البيان للطبري (١/ ١٥٦).

للمحبين، وتسليةٌ للمبتلين، وتعزيةٌ للمظلومين والمستضعفين، وإنذارٌ للمفرِّطين والمُفرِطِين، وردعٌ للظالمين، وزجرٌ للعاصين، وترهيبٌ للمجرمين. الإيمان بيوم الدين ينير الطريق، ويقوِّم السلوك، ويثبِّتُ الخائف، ويسلِّي المبتلى، ويجلي الأحزان، ويهدي الحيران، ويهذِّب النفوس، ويداوي القلوب، ويضبط السلوك، ويقيم ميزان العدل، ويرسِّخُ القيم، ويوحِّد الغايات.

والمؤمن في حاجة إلى الإكثار من ذكر هذا اليوم، إلى استحضاره في كل وقت، إلى معايشته في كلِّ حالٍ، وهذا ما تقصد إليه سورة الفاتحة، عندما تشير إلى ملك الله ليوم الدين، كما تشير إلى مصير الناس الدنيوي والأخروي، فمنهم من أنعم الله عليه في الدارين ومنهم من غضب عليه.

فتذكار اليوم الآخر من مقاصد السورة الكريمة، وهكذا دأبُ السلف كانوا يكثرون من ذكر الآخرة في جميع الأحوال، فمن كان في ضيقٍ ومحنة فإن ذكر الآخرة تسلية للقلوب وبرد للأكباد، ومن كان في حالة نعمةٍ ومنحةٍ فإن ذكر الآخرة مما يحفظه من الاغترار والغفلة والنسيان، ومن كان مقيما على معصيةٍ فإن ذكر يوم الدين يزجرُه ويرهِّبه، ومن كان على طاعةٍ ففي ذكر يوم الدين ما يحفزه ويرغِّبه ويحدو به للإقبال على تحقيق الآمال.

«كان عمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يجمع العلماء فيتذاكرون الموت، والقيامة،

والآخرة، فيبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة، وكان بعض الصالحين ينادي بليل على سور المدينة: الرحيل. الرحيل. فلما تُوفي فَقَدَ صوتَه أميرُ المدينة فسأل عنه. فقيل: إنه قد مات فقال:

ما زال يلهجُ بالرحيلِ وذكرِه ... حتى أناخ ببابِهِ الجَمَّالُ

فأصابَهُ متيقِّظاً متشمِّراً ... ذا أهبةٍ لم تلهِهُ الآمالُ

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا.[(١)] .

قال الرازي: «وأما قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فاعلم أن الإنسان كالمسافر في هذه الدنيا، وسنُوُّه كالفراسخ، وشهورُه كالأميال، وأنفاسُه كالخطواتِ، ومقصدُه الوصول إلى عالم أخراه؛ لأن هناك يحصِّل الفوز بالباقيات الصالحات، فإذا شاهد في الطريق أنواع هذه العجائب في ملكوت الأرض والسموات فلينظر أنه كيف يكون عجائب عالم الآخرة في الغبطة والبهجة والسعادة !»[(٢)] .

(١) انظر التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ص ٧.
(٢) التفسير الكبير للرازي (١ / ١٣٦).

وفي هذا من إصلاح النفس وتزكيتها ما يصل إلى المقصود، ويحقق الأمل المنشود، فالإيمان باليوم الآخر ركيزةٌ من ركائز الإصلاح، ومنطلقٌ لكلِّ خيرٍ، حيث يسعى العبد لإصلاح آخرته بإصلاح دينه ودنياه، ويدَّخر من الأعمال الصالحات ما يُثقل موازينه ويرفع درجته، بل ويتنافس إلى الخيرات لتكون ذخيرةً له، ولقد ذكر الله في مقدمة سورة البقرة أثر الإيمان بالآخرة في تحقيق الفلاح قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥].

بينما ذكر تعالى ضلال وتخبط من لم يؤمن بهذا اليوم، فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨]. فالذين أنكروا الآخرة أو غفلوا عنها لا يقيمون للعدل ميزانا ولا يحملون للحساب همًّا، فتراهم يجترئون على المحارم ويعتدون على حدود الله، ويهتكون الأستار ويضيِّعون الأعمار، قال تعالى عن المطففين الذين يطففون في الكيل والموازين وسائر الحقوق: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦]، بينما الذين آمنوا بالآخرة وتذاكروها لا يكتفون بإقامة موازين العدل بل يحسنون إلى الآخرين وإن لم يحسنوا

إليهم، دون أن ينتظروا مكافأة أو ثناءً، ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ٥ - ١٠].

إن الإيمان بالآخرة واليقين بالرجوع لرب العالمين يدفع لصالح الأعمال، ويُذكي روح التنافس الشريف على الخيرات، ويصقلُ النفوس ويزيدها إشراقا، ويُفجر الطاقات، ويشحذُ الهمم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

وإن عبدًا يتذاكر الآخرة في يومه وليلته ويضع نصب عينيه موازين العدل الإلهي الأخروي لحريٌّ بأن يحاسب نفسه ماذا قدّم وماذا أخّر، يحاسبها على خلواتها كما يراقبها في جلواتها، قال الحسن:

«المؤمن قوّام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة لقوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة».

إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بين هَلَكَتِهم، إن المؤمن أسيرٌ في الدنيا يسعى في

فكاك رقبته، لا يأمنُ شيئاً حتى يلقى الله، يعلمُ أنه مأخوذٌ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذٌ عليه في ذلك كله[(١)].

«وهل يغفل العاقل لحظة عن ذكر الآخرة وهي مصيره ومستقره بل يكون له في كل ما يراه من ماء أو نار أو غيرهما عبرة وموعظة، فإن المرء ينظرُ بحسب همته، فإذا دخل بزَّازٌ ونجار وبنَّاء وحائك داراً معمورة مفروشة فإذا تفقدتهم رأيتَ البزاز ينظر إلى الفُرُش يتأمل قيمتها والحائك ينظر إلى الثياب يتأمل نسجها والنجار ينظر إلى السقف يتأمل كيفية تركيبها والبنّاء ينظر إلى الحيطان يتأمل كيفية إحكامها واستقامتها؛ فكذلك سالك طريق الآخرة لا يرى من الأشياء شيئاً إلا ويكون له موعظة وذكرى للآخرة، بل لا ينظر إلى شيء إلا ويفتح الله عز وجل له طريق عبرة، فإن نظر إلى سواد تذكر ظلمة اللحد، وإن نظر إلى حية تذكر أفاعي جهنم، وإن نظر إلى صورة قبيحة شنيعة تذكر منكراً ونكيراً والزبانية، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور، وإن رأى شيئاً حسناً تذكر نعيم الجنة، وإن سمع كلمة رد أو قبول في سوق أو دار تذكر ما ينكشف من آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول...»[(٢)].

وسورة الفاتحة تذكرنا بالآخرة عشرات المرات كل يوم وليلة. فتعمُرُ أوقاتَنا بذكر الله وتذكُّر الآخرة، وجديرٌ بمن يستحضر يوم الحساب والجزاء سائرَ أوقاته أن يتحرّى العدالة

(١) يراجع: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٤٠٥).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٣٩).

ويجتهد في ترسيخها، وإزاحة كل ما يقف عقبة في طريقها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

فلا يكفي للمسلم أن يكون عادلا، بل إنه حارسٌ للعدالة، داعٍ إليها يفديها بروحه ودمه. قال الفضيل: إني لأستحي من الله أن أشبع حتى أرى العدل قد بسط، وأرى الحق قد قام.(١)

في تذكر المؤمن للآخرة ما يطيب خاطره، ويسري فؤاده ويبهج روحه، ويهيج أشواقه لوعد الله له، فيجدّ ويجتهد حتى يتحقق له الوعد، لا يبالي بالحوادث والنائبات، فذكر الآخرة ينعشُ فؤاده، ويشحذ همته ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]. وبذكرها يهون عليه كل مصابٍ، ويحلو له كل مرار:

والحادثات وإن أصابك بؤسها ... فهي التي تنبيك كيف نعيمها.

إن تذكر الآخرة الدائم من عوامل إصلاح النفس وحملها على الاستقامة، وحثها على اللحاق بركب من أنعم الله عليهم، والتخلق بأخلاقهم، واتباعهم سَنَنهم.

(١) يراجع: حلية الأولياء ٨ / ١٠٨. الفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ من الفقهاء الزهاد العباد نشأ بالكوفة ثم انتقل لمكة مجاورا حتى مات. (ت ١٨٦).

ثالثًا: شخصٌ حرٌّ أبيٌّ

تغرس فينا سورة الفاتحة معنى الحرية والإباء، فكل ما سوى الله مربوب له، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا نخضع، ولا نركع ولا نذل إلا لله، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لا نعبد سواه ولا نستعين بغيره، فالعبودية لله تحررٌ وانطلاق، والاستعانة به وحده عزٌّ وإباء، وطلب الهداية منه تحررٌ من كل منهج وتصور وتقليد ضال، وتجرد من كل هوى، وبراءة من كل زيغ وانحراف، بهذا تصوغ منا الفاتحة نفوسا حرة أبية، متجردة للحق، منقادة له.

لقد جاء الإسلام بأعظم ثورة عرفتها البشرية، ثورة على الظلم والقهر، ثورة على الباطل والاستبداد، ثورة على الجهل والضلال، ثورة على الأباطيل والخرافات، جاء الإسلام ليحطّم القيود والأغلال التي صنعتها الأساطير والأوهام، » والقُرآن أعظم كتاب يُنْشئ «العقليّة العِلميّة» التي تنبُذ الخُرافة وتتمرّد على التّقليد الأعمى للأجداد والآباء أو السّادة والكُبراء، أو للعوام والدّهماء، وترفُض الظُّنون والأهواء في مقام البحث عن الحقائق والأمور اليقينيّة، ولا تقبل دعوى إلّا ببرهان قاطع، من المُشاهدة المُؤكّدة في الحسّيات، ومن المنطق السّليم في العقليّات، ومن النّقل المُوثّق في المرويَّات، ويَعتبر القرآن النّظر فريضة، والتّفكير عبادة، والبحث عن الحقيقة قُربة، واستخدام أدوات المعرفة شُكراً لنعم الله وتعطيلها سبيلاً إلى جهنَّم» [١].

---

(١) ملامح المُجتمع المسلم الذي نُنشده د. يوسف القرضاوي ص ١٣٥

«وكانت النتيجة الطبيعية لعقيدة الإيمان بخالق الكون والإنسان ثورة الإنسان على كل عبودية، ثورته على نفسه ليسيطر على أهوائها، وثورته على الملوك المستبدين من القياصرة والأكاسرة، وانتشار الوعي في الشعوب جميعًا، ذلك الوعي القائم على عبادة الله وتعظيمه وحده، التعظيم المطلق والنظر إلى جميع الناس ومنهم كبراء الدنيا وملوكها نظرة لا خضوع فيها ولا خوف»[(١)].

ويهدف الإسلام إلى إعداد جيل متحرر، «جيل يحتكم إلى الحقائق لا إلى الأوهام، فلا يجري وراء خيال كاذب، أو حلم فارغ، أو أماني موهومة فيسبح في غير ماء ويطير بغير جناح، جيل كبير الآمال ولكنه واقعي التفكير... لا يحرث في البحر، ولا يبذر في الصخر، ولا ينسخ خيوطاً من الخيال، ولا يبني قصوراً من الرمال»[(٢)].

وهكذا صنع القرآن ذلك الجيل القرآني الفريد الذي حمل بيارق القيادة ومشاعل الهدى والريادة للعالم، جيل الصحابة الكرام والتابعين بإحسان الذين تربوا على سورة الفاتحة وصاغتهم معانيها.

قال الشاعر محمد إقبال

لـو يمـسَّ التوحيـدُ فكـرًا نقيًّـا   وضمـيرًا حيًّـا وقلبًـا أبيًّـا

(١) نحو إنسانية سعيدة، د محمد المبارك ص ٥٥.

(٢) جيل النصر المنشود للقرضاوي ص ٢٢.

لأحال الخمولَ والضعفَ إيمانًا وعزمًا يغزو نجومَ الثُّرَيَّا

فأين جحافلُ الأبطالِ منا يضئ مسيرُها للسالكين

وتغبطُها شعوبٌ أرهقتها بالاستبدادِ أيدي الظالمين

لقد جاء الإسلام بدعوة التوحيد والعبودية الخالصة لله جل وعلا، جاء بتحرر الإنسان من عبادة الأشجار والأحجار والنيران وغيرها من المخلوقات قال تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فصلت: ٣٧

جاء ليتحرر الإنسانُ من سطوة المستبدِّين والمضلِّين الذين سلبوا الناس حريَّاتهم باسم الدين وأفسدوا على الناس دنياهم وأخراهم ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وهل أفسد الدين إلا الملوكُ وأحبارُ سُوءٍ ورُهبانُها!

جاء بتخليص الإنسان من عبودية المال والشهوات إلى عبادة ربِّ الأرض والسموات ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤ - ١٥]، فمهما زينت الشهوات وحُببت للنفس وتعلق بها الفؤاد فإن مقارنة بينها وبين ما ادخره الله لعباده في الآخرة كفيل في الزهد عنها، وترك التعلق بها. فلا بد للمبتلى بحب الشهوات أن يتذكر نعيم الجنات.

وأن نعلم ما يترتب على ذلك الانكباب على شهوات الدنيا من تعاسة وشقاء، كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»[(١)].

جاء الإسلام بالحرية الحقيقية: تحرير العقل من الفلسفات المادّيّة والمذاهب والدّيانات الوضعيّة التي تُقيّد العقل وتُعطّله أو تُطلق له العنان بلا ضابطٍ أو ميزان.

تحرير القلب بتطهيره من كُلّ الشّوائب والأكدار، وتجليته من الصّدأ والرّان.

(١) صحيح البخاري (٤/ ٣٤) ح ٢٨٨٧ وسنن ابن ماجه (٢/ ١٣٨٦) ح ٤١٣٦.

تحرير الجسد من أسر الشّهوات وهيمنتها.

تحرير القلب من الهمم الدّنيّة والأهواء.

وعندما يتحرر الإنسان ويتخلص من تلك الأوزار ويلقي عن كاهله تلك الأثقال فلسوف ينطلق ويعدو ويحلق ويسمو نحو غايته الكبرى التي من أجلها خُلق يحدوه إيمانه وعبوديته لخالقه نحو العُلا والمجد.

إن الحرية الحقيقية في إخلاص العبادة لله - تعالى - والاستعانة به وحده، ونحن إذ نقرأ في الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نعلن ليل نهار تحرّرنا من عبودية غير الله، وإيماننا بعبادة الله وحده، فهي عزّنا وشرفنا، لا تستهوينا فلسفاتٌ ضالة، ولا تغرُّنا شعاراتٌ برَّاقةٌ، ولا تستبدُّ بنا أوهامٌ وخرافاتٌ، ولا تخدعنا بهارج زائفة، إن عبادة الله تعالى كما أنها غايةُ وجودنا ومحور حياتنا فهي أيضا التحرر الحقيقي، وإن استعانتنا بالله وحده تغنينا عن ذل الاستعانة بغيره، وتحررنا من الضعف والهوان والمذلة والانكسار. استعانتنا بالله عزَّ لنا، إنها تعني افتقارنا إليه وتعظيمنا وثقتنا فيه، وبهذا التحرُّر الحقيقي ينطلق المؤمن نحو المعالي، وينافس في الخيرات، مرتاحَ البال، مشرق الروح.

لقد أدركت أمُّ مريم معنى الحرية فتمنت لجنينها أن يحيا محررا: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥] خالصا لوجهك مقيما على طاعتك مخلصا لك، عاكفا على عبادتك.

فتدبُّر سورة الفاتحة والعيش في معانيها يكسبُ المؤمن قوةً وإباءً، وصلابةً ومنعةً، فقلبه معلَّقٌ بربه، وروحهُ ترنو إلى منازلَ عاليةٍ، فلا تهبطُ إلى سفاسف الأمور:

على قدْرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ ... وتأتي على قدْرِ الكرامِ المكارمُ

فتعظُمُ في عين الصَّغيرِ صغارُها ... وتصغرُ في عين العظيمِ العظائمُ[(١)]

شخصية حرةٌ أبيةٌ: كلما قرأ السورة بتدبُّر وخشوع، يزداد إيمانه ومعرفته بربه ومحبته وتعظيمه، وثقته بطريقه، فتهون في ناظريه الحياةُ، وتذلُّ أمامه الصِّعابُ، ويكتسبُ حصانةً وقوةً ومنعةً يواجهُ بها التحديات ويجابهُ الأزمات، ويصمدُ أمام أعاصير المحن، ويصارع أمواج الفتن، فلا ينكسرُ ولا يستسلم.

يقول الشيخ الدوسري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عقيدة المسلم وأخلاقه المنبثقة من شعاره الصادق، وضراعته الخالصة بـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ هي في صميمها قوة بناءة، وحركة دافعة إلى النمو المطَّرد، وانطلاق إلى الحركة الدائبة في سائر المجالات التي بها تحقيق الذات، وفرض الإرادة»[(٢)].

شخصية حرةٌ أبيةٌ: لا تحني الجباه إلا لله، ولا تخضع لأحد سواه، ولا تستعين بغيره ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

---

(١) للمتنبي. ينظر: ديوان المتنبي (ص٣٨٥).

(٢) صفوة الآثار والمفاهيم للدوسري ١/ ٢٢٩.

رابعًا: شخصٌ طموحٌ راقٍ

الطموح أن يحيا الإنسان لغاية نبيلة، ويسعى لهدف منشود، وتتوق نفسُه إلى معالي الرُّتب، ويُحلِّق فؤادُه فوق قمم النجاح، وللمسلم مطالبُه التي يجدِّدها ويرفعُها لربه صباح مساء، وأهمُّها الهداية إلى الصراط المستقيم، لينال الفلاح في الدارين، يتمنى ذلك لنفسه ولإخوانه، والسير على درب الأنبياء والصالحين الذين سبقوا، يطمح أن يكون من الذين أنعم الله عليهم بوجوه الإنعام، فالطموح زاد السالكين، ونبراس السائرين. ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

إنسانٌ بلا طموحٍ عُليا إنسانٌ خاملٌ قاعدٌ عن المعالِي، عاطلٌ عن الأمجاد.

وسورة الفاتحة تبعث الأمل في النفوس وتشحذ الهمم. حيث تغرس فينا المعرفة والوعي، معرفة الله تعالى ومعرفة الكون ومعرفة رسالتنا، والمعرفة هي الخطوة الأولى على طريق الطامحين، وتحفزنا أم القرآن على العبادة والاستعانة بالله وطلب الهداية وتحاشي طرق الضلال، فهي سورة النجاح والفلاح لمن تدبرها وانتفع بها.

وهذه الطموحات التي ينشدها المؤمن واقعيةٌ حقيقيةٌ يمكن تحقيقها، فقد سُبِقَ إليها، ولذا أضيف الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم لبيان أنَّ هناك من سلك هذا الطريق وسبق إليه، وأن سلوكه أمرٌ واقعيٌّ حقيقيٌّ، وليس خياليًّا أو مثاليًّا، وأنه توفيقٌ من الله

تعالى وإنعامٌ، وأنَّ لهذا الطريق دليلا وحاديًا، «... إذ لا بدّ فيه من دليل، وإلا ضلّ سالكها عن سواء السبيل ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

وَإِنَّمَا القَوْمُ مُسَافِرُونَ ... لِحَضْرَةِ الْحَقِّ وَظَاعِنُونَ

فَافْتَقَرُوا فِيهِ إِلَى دَلِيل ... ذِي بَصَرٍ بِالسَّيْرِ وَالْمَقِيلِ

قَدْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ثُمَّ عَادَ ... لِيُخْبِرَ الْقَوْمَ بِمَا اسْتَفَادَ[(١)]

فعبادة الله تعالى وحده هي أعظم رسالة وأسمى غاية في الوجود، والاستعانة به تعالى خير وسيلة لتحقيق المطلوب وتحصيل المرغوب وتحاشي المرهوب، وطلب الهداية ضبط لطموح الإنسان وتوجيه له، والاقتداء بمن أنعم الله عليهم منارةٌ على الطريق. ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾: الطريق الواضح، فالطامح له هدفٌ واضحٌ يسلكه من طريق واضح، كان عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يخاطب حاملي كتاب الله بقوله: «يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وَضحَ لكم الطريق، فاستبقوا الخيرات لا تكونوا عيالا على الناس»[(٢)].

وقال عمر بن عبد العزيز: «إِنَّ نَفْسِي هَذِهِ نَفْسٌ تَوَّاقَةٌ، وَإِنَّهَا لَمْ تُعْطَ شَيْئًا إِلا تَاقَتْ إِلَى

(١) البحر المديد لابن عجيبة (١ / ٣٢) بتصرف والأبيات لابن البنا.

(٢) ذكره النووي في التبيان (ص ٢٩).

مَا هُوَ أَفْضَلَ مِنْهُ. فَلَمَّا أُعْطِيتِ الَّذِي لا شَيْءَ أَفْضَلَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا تَاقَتْ إِلَى مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ»[(١)]. يعني لما أعطي الخلافة وهي آخر درجة في رتبِ المعالي الدنيوية تاقت نفسُه إلى الجنة وهي خيرٌ من الخلافة.

وقال ابن الجوزي: «ولله أقوامٌ ما رضوا من الفضائل إلا تحصيل جميعها فهم يبالغون في كل علم، ويجتهدون في كل عمل، ويثابرون على كل فضيلة، فإذا ضعُفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيّات نائبة وهم لها سابقون»[(٢)].

وقال الكاتب الأمريكي إمرسون: «بغير الحماسة لا يمكن القيام بأمر عظيم في الحياة»[(٣)].

وكيف لا يلهب نفوسنا الحماس ونحن نقرأ في الفاتحة ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فنتذكر أننا في سباق ومنافسة على النجاة والفوز في هذا اليوم العظيم.

خامسًا: شخص وسطي معتدل

أ.شخص وسطي: الوسطية: تعني الاعتدال والتوازن بين الأمور دون إفراط أو تفريط، أو غلو أو تقصير. والوسطية سمةٌ من سمات الأمة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٤٠١)، عيون الأخبار لابن قتيبة (٣٣٤).

(٢) صيد الخاطر ص ٢٤٠.

(٣) الشخصية، للإبراشي ص ١٧٦.

﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي عدولا وخيارا، فالاعتدال في الأمور والتوسُّط فيها هو الخيرُ كلُّه. قال الطبري: «وصفهم بأنهم «وسَط»، لتوسطهم في الدين، فلا هُم أهل غُلوٍّ فيه، غلوَّ النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه - ولا هُم أهلُ تقصير فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها»(١).

ولما كانت الوسطيةُ من سمات الأمة فهي من مقومات شخصية الفرد المسلم الذي ينتمي لأمته. والإنسان في حاجة إلى الصراط السويّ في كل خطوة يخطوها، وفي كل خطرة، وفي كل نَفَس، إذ لا يكاد يسلم في حياته من الوقوع في الإفراط أو التفريط، فهو في حاجة للوسطية والاستقامة، في حاجة للمنهج الواضح الوسطي المعتدل، من هنا كان دعاء المؤمنين: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: الطريق الواضح المستقيم الذي يتّسع للجميع، الطريق اليسير المختصر، الطريق المطروق الآمن، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ،

(١) جامع البيان للطبري (٣/ ١٤٢).

وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»[(١)].

سورة الفاتحة دعوة لاستقامة الفرد واستقامة الجماعة، وهدايتها لما فيه صلاحها وخيرُها. يقول الرازي: «فلا بدَّ من معرفةِ العدلِ الذي هو الخطُّ المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في الأعمال الشهوانية وفي الأعمال الغضبية، وفي كيفية إنفاق المال فالمؤمن يطلب من الله - تعالى - أن يهديه إلى الصراط المستقيم الذي هو الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في كل الأخلاق وفي كل الأعمال»[(٢)].

إنَّ ما بين مكارم الأخلاق وحميد الخصال خيوطٌ دقيقة لا يوفَّقُ إلى ملاحظتها إلا من هداه الله تعالى وبصَّره، والتوسط والاعتدال ميزانٌ دقيقٌ لا يدركه إلا ذو بصيرةٍ نافذةٍ وحكمةٍ بالغةٍ؛ لذا كان طلب الهداية إلى الصراط المستقيم من الله تعالى وحده، فالتوازن بين مطالب الروح والجسد ونداء العقل والقلب، والاعتدال في الأخلاق والسلوك، من سمات الشخصية المتميزة.

---

(١) مسند أحمد ط الرسالة (٢٩/ ١٨١). والحديث صحيح.

(٢) التفسير الكبير للرازي (١/ ٢٠٦).

والصِّراط المستقيم هو الوسط، فلا غلوَّ ولا تقصيرَ ولا إفراطَ ولا تفريط، ولا تشدُّد ولا تساهلَ، «وفي دعاء المؤمنين بأن يهديهم اللّهُ الصراط المستقيمَ، ويجنِّبَهم صراط المغضوب عليهم، والضالين عن الطريق القويم في هذا الدعاء غايةٌ في تحرّي الطريق إلى الله، والتماسه مستقيما خالص الاستقامة، بعيدًا عن مزالق المفتونين في دينهم، والمنحرفين عن سواء السبيل... وهذا الدعاءُ من المؤمنين مع كونهم على الهداية، بمعنى التثبيت وطلب مزيد الهداية؛ لأن الألطاف والهدايات من الله تعالى لا تتناهى»[(١)] .

ومن ثمرات تلاوة الفاتحة وتدبُّرها تحقيق التوازن في الشخصية: التوازن بين مطالب الروح والجسد، التوازن بين العقل والعاطفة، التوازن بين الخوف والرجاء، التوازن بين الفرد والجماعة، التوازن بين المعرفة والسلوك، التوازن بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة، التوازن بين الحقوق والواجبات، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

فإذا توازنت هذه الأمور وانضبطت في مسارها الصحيح حصل الفلاح وتحقق النجاحُ، ولا شك أن طلب الاستقامة وهي السير على الطريق القويم المعتدل الواضح مما يحقق هذا التوازن في حياة الإنسان ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

قال ابن القيم «فأَسْعَدُ الخَلْقِ أَهْلُ هَذِهِ العِبَادَةِ والاسْتِعَانَةِ والهِدَايَةِ إِلَى المَطْلُوبِ، وأشقَاهُمْ مَنْ عَدِمَ الأُمُوْرَ الثلاثَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ونَصِيْبُهُ

(١) معالم التنزيل للبغوي (١ / ٧٥ - ٧٧) باختصار.

مِنْ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مَعْدُوْمٌ أَوْ ضَعِيْفٌ فَهَذَا مَخْذُوْلٌ مَهِيْنٌ مَحْزُوْنٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ نَصِيْبُهُ مِنْ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَوِياً ونَصِيْبُهُ مِنْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ضَعِيْفاً أَوْ مَفْقُوْداً فَهَذَا لَهُ نُفُوذٌ وَتَسَلُّطٌ وَقُوَّةٌ ولكِنْ لاَ عَاقِبَةَ لَهُ بَلْ عَاقِبَتُهُ أَسْوَءُ عَاقِبَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ لَهُ نَصِيْبٌ مَنْ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولَكِنْ نَصِيْبُهُ مَنْ الهِدَايَةِ إَلى المَقْصُوْدِ ضَعِيْفٌ جِداً كَحَالِ كَثِيْرٍ مِنْ العِبَادِ والزُهَادِ الَّذِيْنَ قَلَّ عِلْمُهُمْ بِحَقَائِقِ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنَ الهُدَى والتُقَى»[(١)].

وشخصية المسلم «شخصية متوازنة تعطي للجسم حقّه من العناية، وللمظهر ما يستوجبه من الرعاية، ولا يلهيها هذا المظهر عن المخبر اللائق بالإنسان الذي كرمه الله وأسجد له ملائكته... بل تُعنى بما يكوّن فيها العقل الراجح والتفكير السديد، والمنطق السليم، والفهم العميق لحقائق الأشياء، والنظرة النافذة إلى لبِّ هذه الحقائق وجوهرها، ولا يعزب عنها أن الإنسان ليس مكوَّناً من جسم وعقل فحسب، وإنما له قلب يخفق، وروح ترفرف، ونفس تَهْجُس، وأشواق عليا تدفعه إلى الاستعلاء على هذه الحياة المادية وحطامها، والصعود في معارج الخير والفضيلة والنور، ومن ثَمّ تُعْنَى بالتربية الروحية كما تُعنى بالتربية الجسمية والعقلية سواء بسواء، في توازن محكم دقيق بحيث لا يطغى جانب من هذه الجوانب على آخر»[(٢)]، حتى «يجابه أعباء حياته بإرادة قوية، وعزيمة ثابتة تمكنه من حسن التكيف، والتفاعل والاستجابة، واتخاذ المواقف والاتجاهات

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢ / ١٢٣).

(٢) شخصية المسلم، للهاشمي: ٣٣٤.

الصحيحة حيالَ كل المشاكل والمعوقات والعراقيل، فلا يفقد اتزانه العقلي، ولا يختل توازنه النفسي، ولا تنهار شخصيتُه أمام أبسط العقبات والمصاعب»[(١)]، فالتوازن يعني الحكمة، بوضع الأمور في نصابها «والرجل الحكيم هو السديد الرأي البعيد النظر الحسن التقدير الذي يعرف الحق فيتمسك به ويقعل ما يجب أن يُفعل ويترك ما ينبغي أن يترك، ويقول ما يجب أن يقال...»[(٢)].

التوازن بين مصالح الدنيا والفلاح في الآخرة:كما قال ربُّنا جل وعلا: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧]، «هذا أبو حازم سلمة بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقر هذه «الواقعية» فيجمع بين موافقة الفطرة وملائمة نوازع الإنسان، مع الاعتناء بترويض النفس وتهذيبها على طاعة الله تعالى: لما جاء رجل لأبي حازم وقال: إني لأجد شيئاً يحزنني. قال أبو حازم: وما هو يا ابن أخي؟ قال: حبي الدنيا. فقال لي: اعلم يا ابن أخي إن هذا الشيء ما أعاتب نفسي على حب شيء حببه الله تعالى إلي، لأن الله عز وجل قد حبب هذه الدنيا إلينا ولكن لتكن معاتبتنا أنفسنا في غير هذا، أن لا يدعونا حبُّها إلى أن نأخذ شيئاً من شيء يكرهه الله، ولا أن نمنع شيئاً من شيء أحبه الله، فإذا نحن فعلنا ذلك لا يضرُّنا حبُّنا إياها»[(٣)].

(١) أسس التربية الإسلامية، د. عبد الحميد الصيد الزنتاني: ٨٤٢ - ٨٤٣

(٢) الشخصية، الإبراشي ص ٧٩.

(٣) معالم في السلوك وتزكية النفوس (ص: ٣٧) ويراجع: الحلية لأبي نعيم ٣/ ٢٤٤، والرعاية للمحاسبي ص٢٤٩. وأَبُو حَازِمٍ سَلَمَةُ بنُ دِيْنَارٍ المَدِيْنِيُّ المَخْزُوْمِيُّ الإِمَامُ، القُدْوَةُ، الوَاعِظُ، شَيْخُ

وسورة الفاتحة تبيِّن المنهج لإصلاح الدنيا وعمارتها، إذ تتحدث عن ربوبيته تعالى لهذه العوالم، ورحمته العاجلة والآجلة، العامة والخاصة، وعن رسالة المؤمن في هذه الحياة، وعن طريق الهداية الذي يفضي إلى النعم الدنيوية والأخروية. فلم تقتصر السورة على حياة دون أخرى بل إن تعاليمها تهدي إلى صلاح الدنيا والآخرة وسعادة الدارين.

الاتزان في السلوك: حين نطلب الهداية من ربِّنا فإننا نطلب الهداية في جميع أحوالنا، في حركاتنا وسكناتنا، في مسيرة حياتنا، وتعاملاتنا اليومية، في قرارتنا الحاسمة واختياراتنا المصيرية، في سلوكنا المنزلي، وفي سلوكنا خارج بيوتنا، في الطريق وفي العمل، في هذا كله نلهج دائما متضرعين ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

التوازن بين الروح والجسد: بينما طغى الجانب المادي على اليهودية، وأهمل رهبان النصارى مطالب الجسد بدعوى كمال الروح، فكانت رهبانيتهم التي انحرفت عن مسارها وانقلبت على مبادئها وأهدافها، قال تعالى في أصدق بيان وأبلغ تعبير عن تاريخ الرهبنة وانحرافها عن مسارها ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]. فانظر كيف تحولت الرهبنة التي كان الغرض منها بداية

المَدِيْنَةِ النَّبَوِيَّةِ، الزَّاهِدُ. مات قرابة ١٤٠ هـ. سير أعلام النبلاء للذهبي (٦/ ٩٦).

التقرب إلى الله تعالى والزهد في الدنيا والانقطاع عن الشهوات والملذات، كيف تحوّلت إلى النقيض من ذلك !كما هو حال الأديرة، حياةٌ رماديَّة خلف الأسوار العالية، وكبتٌ للمشاعر، وقتلٌ للغرائز، وانعزالٌ عن مباهج الحياة، وحرمان من البيت وعاطفة الأمومة، ودفء الأسرة.

أما المسلم فإنه يوازن بين مطالب الروح والجسد فيغذِّي روحه ويسمو بها ويعتني بجسده ويحفظ حقه. آخَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ؟ قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ: سَلْمَانُ قُمِ الآنَ، فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَدَقَ سَلْمَانُ»[١].

فالتوازن هو روح الفطرة وسنة الكون: «توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل وطاقة

(١) أخرجه الإمام البخاري في كتاب الصيام: باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع حديث ١٩٦٨. والترمذي في السنن أبواب الزهد (٤/ ٦٠٨) حديث وقال حسن صحيح ٢٤١٣. ويراجع: لمحات في الثقافة الإسلامية (ص: ٣٦٤).

الروح. توازن بين ماديات الإنسان ومعنوياته. توازن بين ضروراته وأشواقه. توازن بين الحياة في الواقع والحياة في الخيال. توازن بين الإيمان بالواقع المحسوس والإيمان بالغيب الذي لا تدركه الحواس. توازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية. توازن في النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. توازن في كل شيء في الحياة.[١]

والطائر لا يحلق إلا بجناحين بينهما توازن دقيق ولذلك خلق الله له ذيلا يضبط هذا التوازن، كذلك التوازن لن يتحقق إلا بأن نطير بجناحين: جناح الخوف وجناح الرجاء، جناح المحبة وجناح التعظيم، جناح العبادة وجناح الاستعانة، جناح الرغبة وجناح الرهبة، جناح الولاء وجناح البراء. من هنا ندرك أهمية ترديدنا في صلواتنا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: فبالعبادة نقوى ونرقى.

وبالاستعانة نتمكّن ونوفّق. وبطلب الهداية نثبت ونتحقق.

سادسًا: شخصية سوية[٢]

الفاتحة سورة الرقية والشفاء من أسقام الأبدان واعتلال الأرواح وأمراض القلوب،

---

(١) منهج التربية الإسلامية محمد قطب (١/ ٢٢٩).ويراجع نظام الحياة في الإسلام، أبو الأعلى المودودي ص٧٦.

(٢) يرى د. محمد عثمان نجاتي: الشخصية السوية هي الشخصية التي يتوازن فيها الروح مع البدن، فلا تنساق وراء الشهوات ولا تكبتها. القرآن وعلم النفس محمد عثمان نجاتي ص٢٣٦. ويراجع التوجيه والإرشاد النفسي حامد زهران (ص:١٤٦)

بما تغرسه من أصول الإيمان وتنميه وترسِّخهُ، والإيمان حصن حصينٌ، والفاتحةُ شفاءٌ للنفوس تجدُ فيها الإجابة الشافية عما حار فيه الفلاسفةُ والطبيعيّون حتى وصلوا بفلسفتهم وبحثهم إلى طرق مسدودة مظلمة.

من أين جئنا؟ وإلى أين نمضي؟ وما هي ثمرة وجودنا وغايته؟ وكيف نسلك طريق النجاة؟ كل هذه التساؤلات الحائرة نقرأ في الفاتحة أجوبتها الكافية. أما إذا ضلَّ الإنسان عن إجابتها الصحيحة فإنه يعيش في قلقٍ وحيرةٍ وكآبةٍ وهمٍّ ينعكسُ على سلوكه وتصرُّفاته.

شخصيةٌ سوية: على بيِّنة من أمره وبصيرة من ربِّه وثقةٍ في طريقِه، ومحبةٍ ونصحٍ لأهل الإيمان، وموالاة لهم وبراءٍ من أهل الجحود والزيغ.

شخصية سوية: راجيةٌ لرحمةِ ربِّها، مطمئنةٌ لحكمه، راضيةٌ بقضائِه، موقنةٌ بلقائِه، وهي إلى جانب ذلك تخاف الله وتخشاه.

يقول أبو حامد الغزالي: «إن الرَّجَاء وَالْخَوْف جَنَاحَانِ بِهِمَا يَطِيرُ الْمُقَرَّبُونَ إِلَى كُلِّ مَقَامٍ مَحْمُودٍ وَمَطِيَّتَانِ بِهِمَا يقْطَعُ منْ طرق الآخرة كل عقبة كئود، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إِلَّا أَزِمَّةُ الرَّجَاءِ وَلَا يَصُدُّ عَنْ نَارِ الجحيم والعذاب الأليم مع كونه محفوفاً

بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف»[(١)].

شخصية سوية: تميِّز بين الحق والباطل والهدى والضلال، وتلتمس العون والهُدى من الله، تردِدُ في صلواتها، تهتف في مناجاتها لربها. ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ۝ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال الطبري «وَفّقنا للثبات على ما ارتضيتَه ووَفّقتَ له مَنْ أنعمتَ عليه من عبادِك، من قولٍ وعملٍ، وذلك هو الصِّراط المستقيم. لأن من وُفّق لما وفق له من أنعم الله عليه من النبيِّين والصديقين والشهداء، فقد وُفّق للإسلام، وتصديقِ الرسلِ، والتمسكِ بالكتاب، والعملِ بما أمر الله به، والانزجار عمّا زَجره عنه، واتّباع منهج النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. وكلِّ عبدٍ لله صالحٍ، وكل ذلك من الصراط المستقيم»[(٢)].

شخصية سوية: متفائلةٌ لحاضرها ولمستقبلها، تنظر لحاضرها بعين الرضا، ولمستقبلها بعين الأمل والرجاء، إن أخفقت مرةً حاولت مرةً أخرى، وإن أخفقت مراتٍ لم تنقطع آمالها، متفائلة ترى الكون جميلا، وتبتسم للحياة، وتنسجمُ مع الوجود، متفائلةٌ تحمد الله وتشعر بالرضا وتؤمن بأن رب العالمين هو الرحمن الرحيم، والرحمن الرحيم هو مالك يوم الدين، فهي في نعيم برحمات الله الدنيوية، وشوقٍ لرحمات الله الأخروية.

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ١٤٢).

(٢) جامع البيان للطبري (١/ ١٧١).

«شخصية سوية في صفاتها وخصائصها، في آمالها وطبائعها، في مقاييسها وموازينها، شخصية سوية لم تمسخ فطرتها، ولم تشوَّه جبلتها...» [(١)]، وصدق الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]

شخصيةٌ سوية: تأنسُ لكتاب ربِّها فترى فيه سرورَها وبهجتَها، وتقرُّ عينُها بتلاوته وتدبُّره؛ ولذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «أرحنا بها يا بلال» [(٢)]؛ وكان يقول «وجُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة» [(٣)]، إذ الصلاة قُرة عينه، وأُنْسُ روحه، وبهجةُ فؤاده ورياضُ قلبه، وتدبُّر القرآن نزهةٌ في حدائقه المونقة وجناته المورقة وربيعه المزهر، قال ابن القيم: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة. وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة...» [(٤)].

(١) معالم الشخصية الإسلامية، د. عمر سليمان الأشقر ص ١٢.

(٢) سبق تخريجه، وقال ابن الأثير «وقيل: كان اشتغاله بالصلاة راحة له، فإنه كان يعد غيرها من الأعمال الدنيوية تعباً، فكان يستريح بالصلاة، لما فيها من مناجاة الله تعالى «جامع الأصول - (٦ / ٢٦٤).

(٣) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» رواه أحمد في المسند (٣ / ٢٨٥)، والنسائي في السنن (٧ / ٦١) ح ٣٩٤٠ وصححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير (٣١٢٤).

(٤) الوابل الصيب لابن القيم (١ / ٦٧).

وقال الغزالي رحمه الله: «فَكَيْفَ يَطْلُبُ الْأُنْسَ بِالْفِكْرِ فِي غيره وهو في متنزهٍ ومتفرجٍ والذي يتفرجُ في المتنزهات لا يتفكرُ في غيرها فقد قيل: إن في القرآن ميادينَ وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياضا وخانات... فإذا دخل القارئ الميادين وقطف من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس ولبس الديابيج، وتنزه في الرياض، وسكن غرف الخانات استغرقه ذلك، وشغله عما سواه، فلم يعزب قلبه، ولم يتفرق فكره »[(١)].

شخصيةٌ سويةٌ مبرَّأةٌ من آفات القلوب، قال ابن القيم - رحمه الله -: «ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولابد، وهما الرياء والكبر؛ فدواء الرياء بـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ودواء الكبر بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ وكثيرا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: «﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ تدفع الرياء، و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء»[(٢)].

«فإذا عوفي من مرض الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ومن مرض الكبرياء والعجب بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم غير المغضوب عليهم، وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، والضالين وهم

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (١ / ٢٨٢).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١ / ٥٤).

أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه، وحُقّ لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يستشفى بها من كل مرض»[(١)].

شخصية سوية: تؤوب إلى الفطرة وتلوذ بها وتتمثلها في طهر ونقاء، وسهولة ويسر، «وحين تستقيم النفس مع فطرتها؛ وحين تلبي حاجاتها وأشواقها، وحين تطلق طاقاتها للعمل والبناء، فإنها تجري مع الحياة في يسرٍ وطواعية؛ وتمضي مع خط الفطرة الصاعد، إلى القمة السامقة؛ وهي تجد الأنس والاسترواح والطمأنينة والثقة في خط سيرها الطويل»[(٢)].

وسورة الفاتحة زاخرةٌ بذلك حيث تردُّنا إلى فطرة التوحيد النقي بدءا من الإيمان بربوبية الله تعالى لهذه الأكوان، وختاما بالبراء من الانحرافات الفكرية والسلوكية المتمثلة في طريق من استوجب الغضب ومن ضلّ. فلسلامة الفطرة أثرها على استقامة سلوك الإنسان وصحة منهجه، والفطرة السليمة تهدي صاحبها إلى الحق وتدفعُه لقبوله.

شخصية سوية: مبرّأة من الأنانية والأثرة التي هي آفة المجتمعات ومعول هدمها وعامل تراجعها، ويتمثل ذلك في سورة الفاتحة: تلك الروح الجماعية حين نسأل الله تعالى لنا وللجميع ﴿ٱهۡدِنَا﴾، وحين تتوحد آمالنا وطموحاتنا ونحن نلهج جميعا في وقت

(١) نفس المرجع (١ / ٥٤).

(٢) المستقبل لهذا الدين: ٧٨، ويراجع فصل «رصيد الفطرة» في كتاب: «هذا الدين».

واحد مؤمنين على مطالبنا (آمين). ذكر الدوسري رحمه الله من فوائد الفاتحة: «توجيه تلك الأنانية توجيها صالحا يجعلها مفتاحا لعظمة النفوس وسمو الشخصية والإخلاص في الطموح فإذا صدقنا مع ربنا في تحقيق ذلك أصبحت فرديتنا قد انصهرت أنانيتها في سبيل المجموع الإسلامي الصحيح وامتزجت بحاجياته وانغمرت في مصالحه»[١].

سابعا: شخصية قوية ثابتة[٢]

١ - القوة

المؤمن قويٌّ بإيمانه قويٌّ بأخلاقه، قويٌّ بإرادته وعزمه، بهمته وطموحه قوي، بمضيِّه وإقدامه قوي، بنشاطه وحركته وفعاليته في الحياة قويٌّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ؛ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدر اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[٣].

(١) صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري (١/ ٣٢٢).

(٢) الشَّخصيَّة القويَّة: إنسان ذو صفاتٍ متميزِّة وإرادة وكيان مستقلّ. معجم اللغة العربية المعاصرة (٢/ ١١٧٥).

(٣) رواه مسلم في الصحيح كتاب الْقَدَرِ بَابٌ فِي الْأَمْرِ بِالْقُوَّةِ وَتَرْكِ الْعَجْزِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ وَتَفْوِيضِ الْمَقَادِيرِ لِلَّهِ. (٤/ ٢٠٥٢) ٣٤ - (٢٦٦٤). وابن ماجة في السنن باب في القدر حديث ٧٩.

ولقد وصف الله صفوة أنبيائه بالقوة الراشدة ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥]، وهذا يدلُّ على عملهم الدائب وعطائهم السخي مع رشاد العقل ونفاذ البصيرة. قال مقاتل بن سليمان وغيره: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾ يعني أولى القوة في العبادة، ثم قال: ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾: يعني البصيرة في أمر الله ودينه[(١)].

وقال ابن القيم: «للإنسان قوتان قوة علمية نظرية وقوة عملية إرادية، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية الإرادية واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه ومعرفة أسمائه وصفاته ومعرفة الطريق التي توصل إليه ومعرفة آفاتها ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها استكمال القوة العلمية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد والقيام بها إخلاصا وصدقا ونصحا وإحسانا ومتابعة وشهودا لمنَّته عليه وتقصيره هو في أداء حقه فهو مستحي من مواجهته بتلك الخدمة لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه ودون دون ذلك وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته فهو مضطرٌ إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى إليه أولياءه وخاصته وأن يجنّبه الخروج عن ذلك الصراط، إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب، فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور، وقد تضمّنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام... فمن تحقق بمعاني الفاتحة

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٦٤٩)، وتفسير عبد الرزاق (٣/ ١٢٥).

علما ومعرفة وعملا وحالا فقد فاز من كماله بأوفر نصيب وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين والله المستعان»[(١)] .

ولا شك أن تدبر معاني سورة الفاتحة مما يقوي القلب ويربط عليه، ويشدُّ العزيمة، ويزيل المخاوف من النفوس، كذلك تدبر آيات الله الكونية مما يملأ القلب تعظيما لله تعالى فتهون أمامه الصعاب، ويقوى على مواجهة المخاطر والتحديات، وتنزل عليه السكينة. يقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «عَرَضَ لي في طريق الحجِّ خوفٌ من العرب، فسِرْنا على طريق خَيْبَرَ، فرأيت من الجبال الهائلة والطُّرق العجيبة ما أذهلني، وزادت عَظَمَةُ الخالق عزَّ وجلَّ في صدري، فصار يعرضُ لي عند ذكر الطُّرُق نوع تعظيمٍ لا أجده عند ذكر غيرها. فصحتُ بالنفس: ويحك! اعْبُري إلى البحر، وانظري إليه وإلى عجائبه بعين الفكر، تشاهدي أهوالاً هي أعظم من هذه، ثم اخرجي إلى الكون والتفتي إليه؛ فإنَّك ترينَهُ بالإضافة إلى السماوات والأفلاك كَذَرَّةٍ في فلاةٍ، ثم جولي في الأفلاكِ، وطوفي حولَ العرشِ، وتلمَّحي ما في الجنان والنيران، ثم اخرُجي عن الكُلِّ، والتفتي إليه؛ فإنك تشاهدين العالم في قَبْضَةِ القادر الذي لا تقفُ قدرتُهُ عند حدٍّ.

ثم التفتي إليكِ، فتلمَّحي بدايتكِ ونهايتك، وتفكري فيما قبل البداية، وليس إلاَّ العدمُ، وفيما بعد البلى، وليس إلاَّ الترابُ. فكيفَ يأنسُ بهذا الوجودِ من نَظَرَ بعين فِكْرِهِ المبدأَ

(١) الفوائد لابن القيم (١ / ١٩) باختصار.

والمنتهى؟! وكيف يغفَلُ أربابُ القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم؟! بالله لو صحت النفوس عن سكر هواها لذابت من خوفه، أو لغابت في حبه»[(١)].

وتأمل أخي القارئ في ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فالعوالم كلها مربوبة لله تعالى، قال أبو عَلِي الدقاق رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة من اللَّه تَعَالَى فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته. وقيل: من عرف اللَّه تَعَالَى صفا لَهُ العيش وطابت لَهُ الحياة وهابه كُلُّ شَيْء وذهب عَنْهُ خوف المخلوقين وأنس بالله تَعَالَى[(٢)].

---

(١) صيد الخاطر (ص ٢٧٥، ٢٧٦).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٧٧).

فُرضت العزلةُ على سلطان العلماء العزبن عبد السلام وهو في الشام فاستأجر بستانًا «متطرفًا عَن الْبَسَاتِين وَكَانَ مخوفًا، واتفقت لَهُ فِيهِ أعجوبة وَهُوَ أَن جمَاعَة من المفسدين قصدوه فِي لَيْلَة مُقْمِرَة وَهُوَ فِي جوسق عَال ودخلوا الْبُسْتَان واحتاطوا بالجوسق، فخاف أَهله خوفًا شَدِيدا فَعِنْدَ ذَلِك نزل إِلَيْهِم وَفتح بَاب الْجَوْسَق وَقَالَ أهلا بضيوفنا، وأجلسهم فِي مقْعد حسن وَكَانَ مهيبا مَقْبُول الصُّورَة فهابوه، وسخّرهم الله لَهُ وأخرجوا لَهُم من الْجَوْسَق ضِيَافَة حَسَنَة فتناولوها وطلبوا مِنْهُ الدُّعَاء، وعصم الله أَهله وجماعته مِنْهُم بِصدق نِيَّته وكرم طويته وَانْصَرفُوا عَنهُ.

ويروي تلميذه الإمام الباجيّ: يَقُول طلع شَيخُنَا عزُّ الدّين مرّة إِلَى السُّلْطَان فِي يَوْم عيد إِلَى القلعة فشاهد العساكر مصطفين بَين يَدَيْهِ ومجلس المملكة وَمَا السُّلْطَان فِيهِ يَوْم الْعِيد من الأبهة وَقد خرج على قومه فِي زينته على عَادَة سلاطين الديار المصرية وَأخذت الْأُمَرَاء تقبِّل الأَرْض بَين يدي السُّلْطَان فَالْتفت الشَّيْخ إِلَى السُّلْطَان وناداه يَا أَيُّوب! مَا حجَّتك عِنْد الله إذا قَالَ لَك ألم أبوئ لَك ملك مصر ثمَّ تبيح الْخُمُور؟ فَقَالَ هَل جرى هَذَا؟ فَقَالَ نعم الحانة الْفُلَانِيَّة يُبَاع فِيهَا الْخُمُور وَغَيرهَا من الْمُنْكَرَات وَأَنت تتقلب فِي نعْمَة هَذِه المملكة! يُنَادِيه كَذَلِك بِأَعْلَى صَوته والعساكر واقفون. فَقَالَ يَا سَيِّدي هَذَا أَنا مَا عملته هَذَا من زمَان أبي. فَقَالَ أَنْت من الَّذين يَقُولُونَ ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزخرف:٢٢]، فرسم السُّلْطَان بِإِبْطَال تِلْكَ الحانة؟ قال الْبَاجِيُّ فسَأَلتُ الشَّيْخَ لما جاءَ من عِنْد السُّلْطَان وَقد شاع هَذَا الْخَبَر يَا سَيِّدي كَيفَ الْحَال؟ فَقَالَ يَا بُني رَأَيْتُه فِي تِلْكَ العظمة فَأَرَدْت أَن أُهينه لِئَلَّا تكبرَ نَفسُه فتؤذيه. فَقلت يَا سَيِّدي أما خفته؟

ومن مظاهر قوة الشخصية قدرة الإنسان على ضبط مشاعره سيما عند الغضب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ»، قَالُوا: مَنِ الشَّدِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»(١).

ولا شك أن تلاوة الفاتحة مع تدبُّرها مما يملأ القلب محبةً وتعظيما لله، ويضبطُ سلوكَ الإنسان ويقمعُ شهوةَ الغضب وحب الانتقام لنفسه حيث تذكّره الفاتحة برحمة الله تعالى فيسكن فؤادُه ويطمئنُّ قلبُه، ويفيض رحمة، كما تذكِّره بيوم الحساب والجزاء فيملكُ نفسَه مخافة ما قد يجرُّه الغضب إلى الإساءة للآخرين أو الانتقاص منهم، فيتذكر الحساب الشامل لأفعاله وأقواله، وتهدأ نفسه أن حقّه لن يضيع وأن ظالمه لن يفلت من حساب الآخرة، إن أفلت من عقوبة الدنيا كما أن عبوديته تعالى تقتضي منه طاعة مولاه والخضوع له، والاستعانة تقتضي التسليم والتفويض وطلب الهداية، مما يعين على تقويم النفس وإصلاح عيوبها والارتقاء بها إلى الكمال وتحررها من أغلال الشهوات وحظوظ النفس.

فَقَالَ: وَالله يَا بني استحضرت هَيْبَة الله تَعَالَى فَصَارَ السُّلْطَان قدامي كالقط. طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/ ٢١٢)، (٨/ ٢٣٦) والجوسق: مَنْظَرٌ يُبْنَى فِي الْبَساتِينِ. وَالْجَوْسَقُ: الْقَصْرُ. رسم بإبطال الحانة: كتب كتابا يأمر بإغلاقها على الفور.

(١) رواه البخاري في الصحيح كتاب الأدب بَابُ الحَذَرِ مِنَ الغَضَبِ (٨/ ٢٨) ٦١١٤، ومسلم في الصحيح كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ. بَابُ فَضْلِ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ وَبِأَيِّ شَيْءٍ يَذْهَبُ الْغَضَبُ (٤/ ١٩٧٤) حديث ١٠٧ - (٢٦٠٩). وجاء في معجم اللغة العربية المعاصرة (٢/ ١٣٤٦): ضبط النَّفس = ضبط الذَّات: سيطرة الشّخص على مشاعره أو رغباته أو أفعاله بإرادته الشَّخصيَّة بهدف التطوُّر والتحسين الشخصيّ، التّصبّر وعدم الانفعال.

٢ - الثبات

لا تتبدل ولا تتلوّن ولا تتقلّب بتقلبات الزمان أو بمفارقة الأوطان، ثابت في مبادئه، وفي أهدافه وغاياته، ثابتٌ على منهجه، ثابتٌ في رؤيته، ثابتٌ في أخلاقه النابعة من الرحمة أمِّ الفضائل، وكذلك العدل، ثابت في رؤيته للكون والحياة، لا يزداد إلا فهما وتعمُّقا ويقينا، ولا يتأثّر بكل ما استجدّ من تصورات خاطئة ولا ينبهر بما استُحدث من نظريات متهافتة، ثابت في رسالته التي يحيا من أجلها، عبادة الله وحده، ثابت في استعانته يستعين بالله وحده في السراء والضراء في المنح والمحن، ثابت في طموحاته يطلب الهداية ويتحرّى السير على طريق الأنبياء والصالحين، فهو شامخ كالجبل، راسخ كالطود، ثابت أمام المحن والابتلاءات التي هي سنةُ الله تعالى في كونه وعباده.

«إن العالم كله مدينة الأوهام، والمؤمن وحده هو صاحب يقين لا يزول، وعقيدة لا تتحول، وهو في يقينه في عالم الأوهام، كمصباح الراهب في الغابة المظلمة، ومنارة النور في بحر الظلمات، والجزيرة التي يأوي إليها اليائسون، والطود الذي لا تزحزحه السيول، ولا تزلزله العواصف وقد يتمسك بيقينه، ولا يوافقه على ذلك أحد، ولا يصدقه أحد، فلا تخور عزيمته، ولا تلين عريكته، ولا يرتاب، والناس بين معارض ومنتقد، ومطيع كاره، أو مخالف معتزل، وهو لا يحفل بذلك، ويمضي كالسيف، حتى يهزم يقينه ألف جند من الشك، وينقشع سحاب الأوهام، ويظهر يقينه مثل فلق الصبح»[١].

(١) إلى الإسلام من جديد، لأبي الحسن الندوي، (ت ١٤٢٠هـ) (ص: ٢٦).

يتعلم الطفل سورة الفاتحة منذ نعومة أظفاره فيرتلها ويتدبرها، ولا يزال يقتبس من نورها ويلتمس من هداياتها، فيمضي على الدرب ثابتا لا يحولُ ولا يتغير مهما تغيرت الدُّنى من حوله.

الثبات على التوحيد: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فإن الفعل المضارع يدل على التجدد والدوام والتقديم والتأخير يدل على القصر فلا معبود سواه ولا نستعين إلا به وحده.

الثبات عند الشدائد والمحن: كان سحنون إذا ضاق عليه أمر، يقول: ضيقي تنفرجي يا ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ[1]﴾.

الثبات على الهداية: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: ثبتنا عليها وزدنا منها.

«... وَلَوْلَا احْتِيَاجُ المؤمن لَيْلًا وَنَهَارًا إِلَى سُؤَالِ الْهِدَايَةِ لَمَا أَرْشَدَهُ اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ مُفْتَقِرٌ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَحَالَةٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَثْبِيتِهِ عَلَى الْهِدَايَةِ، وَرُسُوخِهِ فِيهَا، وَتَبَصُّرِهِ، وَازْدِيَادِهِ مِنْهَا، وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَيْهَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، فَأَرْشَدَهُ تَعَالَى إِلَى أَنْ يَسْأَلَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنْ يَمُدَّهُ بِالْمَعُونَةِ وَالثَّبَاتِ وَالتَّوْفِيقِ، فَالسَّعِيدُ مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِسُؤَالِهِ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ بِإِجَابَةِ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ، وَلَا

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٤/ ٨١). وسحنون هو العالم الفقيه عبد السلام بن سعيد التنوخي. انتهت الرياسة إليه في العلم بالمغرب، وولي القضاء بالقيروان، وألف المدونة في الفقه. طبقات الفقهاء للشيرازي (ت ٤٧٦). (ص: ١٥٧).

سِيَّمَا الْمُضْطَرُّ الْمُحْتَاجُ الْمُفْتَقِرُ إِلَيْهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ...»[(١)].

والثبات يعني ضبط النفس، وهو المسلك القويم وعليه مدار التربية، يقول هربرت سبنسر -ت ١٩٠٣-: «إن ضبط النفس أساس الكمال الإنساني، وأنه الغرض من التربية»[(٢)].

ثامنًا: شخصية متميزة مبدعة

أ. شخصية متميزة:

من حكمة الله تعالى في سننه وأقداره تمييز الخبيث من الطيب، ليتألق الطيب، ويخبو الخبيث، ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧]. والمؤمن شخصٌ متميِّزٌ في عقيدته وسلوكه، متميِّزٌ في أخلاقه وفكره، في مشاعره وهمومه، في عمله وأدائه، في عطائه وبذله.

وقد بيّن تعالى أنه يستحيل التسوية بين المؤمن والكافر، بين البرِّ والفاجر، فشتّان بين الضدين، لا يستويان، لا في سعيهما في الدنيا وأحوالهما ولا في مصيرهما وعاقبة أمرهما، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٣٩).

(٢) الشخصية، محمد عطية الأبراشي ص ٦٧.

[الملك: ٢٢] ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[الرعد: ١٩] ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾[السجدة: ١٨]

﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾[ص: ٢٨].

وعندما نقرأ سورة الفاتحة نستشعر الفارق بين من يخلصُ العبادةَ لله ويمحِّضُ الاستعانة ويسألُ الهداية إلى الصراط المستقيم متأسِّيًا بمن سبقه على هذا الطريق ممن أنعم الله عليهم وبين المخالفين ممن استوجب الغضب ولازم الضلال، ممن عرف الحق فجحده وممن ضلَّ عنه فجهله.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: «وَغير طريقِ النَّصارى الذين أضلَّهم الله بِفرْيَتِهمْ عليه. قال: يقول: فألهِمنا دينَك الحق، وهو لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، حتى لا تغضَبَ علينا كما غضبتَ على اليهود، ولا تضلَّنا كما أضللتَ النصارى فتعذّبنا بما تعذِّبهم به. يقول امنعْنا من ذلك برفْقِك ورَحمتك وقدرتك»[١].

والشخصية المتميزة: هي الشخصية المتألقة في العلياء بنجاحها وتفوُّقها، وتدبر الفاتحة من أسباب النجاح والتفوق، فهي تمنحنا بتلاوتها وتدبُّرها الطاقة والزاد، وتشعل

(١) جامع البيان الطبري ت شاكر (١/ ١٩٤).

لنا بالاستهداء بها النبراس، وتعطينا بالأنس بها الأمل والرجاء، وتدلُّنا بالاستبصار بها على المنهج والطريق، وتنوِّهنا إلى سلوك طريق الناجحين المتميزين، وتحذِّرنا من مسالك المنحرفين المنتكسين. «فالمؤهلات العلمية وحدها لا تكفي للنجاح، بل يجب أن تصحب بقوة الشخصية، فكثيرون من أطباء ومدرسين ومحامين وغيرهم فشلوا في حياتهم العملية لضعف شخصياتهم، مع كفايتهم من الوجهة العملية»[(١)].

والمسلم لا يطلبُ التميُّز لنفسه فحسب بل يطلبُه بصيغة الجمع ﴿ٱهۡدِنَا﴾ الدالة على حبه للخير لنفسه وللغير، وهذا من سلامة صدره ونقاء سريرته وصفاء مودته لإخوانه المؤمنين، فطريقُ التميُّز يتَّسع للجميع، والتميُّز مطلوب من الجميع. «إن على الأمة الإسلامية أن تدرك أن لها شخصية مستقلة متميزة، شخصية ليست باليمينية أو اليسارية، شخصية أصيلة، تستمد مواصفاتها وملامحها من الإسلام، دين الفطرة ورسالة الفطرة،... وإنها بحكم هذا التميّز والأصالة يمكن أن تتولى مكان الريادة الفكرية والسياسية في العالم»[(٢)].

يحتاج التميُّز إلى تفكيرٍ، وتدبُّرنا في سورة الفاتحة يكسبنا مهارة التفكير والاستنباط، فضلا عما ينتج عن تدبّرها من معانٍ وإشاراتٍ، فيها أنوارٌ وهداياتٌ.

(١) الشخصية، محمد عطية الأبراشي ص ٨ وزارة المعارف مصر ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.
(٢) ماذا يعني انتمائي للإسلام؟ الأستاذ فتحي يكن، ص ٩ مؤسسة الرسالة بيروت.

يحتاج التميّز إلى تخطيطٍ يرسُمُ المنهجَ ويحددُ الغايةَ وهذا ما نلمسه في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٤ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

يحتاج التميّز إلى توفيقٍ وسداد وهذا ما نرجوه من ربِّنا بقراءتنا لسورة الفاتحة وقد وقفنا بين يديه قائلين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٤ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

يحتاج التميُّز إلى دافع وحافز وهذا ما تدعونا إليه سورة الفاتحة التي مستهلُّها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالذي يملك العطاء هو الله تعالى ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، والمؤمن ينتظر الأجر الدنيوي والأخروي من الله تعالى ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

فتذكرنا برحمة الله العامة للخلق ورحمته الخاصة لأوليائه وأصفيائه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، كما تذكرنا بيوم الحساب على أعمالنا هذا اليوم الذي يتحقق فيه العدل المطلق حيث لا محاباة ولا مجاملة ولا انتقاصٌ لأجر ولا هضمٌ لحق، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، كما تحفِّزنا بأن نكون ممن أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق وفي ذلك من النعم التي لا تحصى فنسلك طريقهم لنحظَى بالإنعام ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

ب. شخصية مبدعة:

تلاوة سورة الفاتحة وتدبُّرها كذلك مما يقوي روح الإبداع وينمي موهبة الابتكار، ذلك أن التدبر استغراق في التفكر بل جمع لشتات القلب، وتعمقٌ في التأمل والنظر والاستنباط مما

يقوي وينمي ملكة الإبداع القائمة على التفكير بعمقٍ ورويّة، فالتدبُّر يحتاجُ لممارسةٍ ورياضة نفسية وذهنية، وصفاء قلب وهذا يغذِّي روح الإبداع. وتدبر سورة الفاتحة تحليق في أجواء عالية وغوصٌ في أعماق بعيدة وسباحة في آفاق رحيبة السورة تتسم بالشمول والعمق في معانيها ومقاصدها وهكذا المبدع لابد أن يحلِّق في أجواء بعيدة ويطير في الآفاق ويغوص في الأعماق ليستنبط ويستكشف ويبتكر. وبوعيه وحسن فهمه وإيجابيته وحبِّه للخير وصفاء ذهنه سوف يقدم للإنسانية ما هو جديد ومفيد.

والسورة تدفعنا إلى التأمل في العوالم المحيطة بنا ولا شك أن كثيرا من المبتكرات والاكتشافات والمخترعات إنما تفتّق عنها ذهن الإنسان بنظرة في الكون وتأمل في عالم من تلك العوالم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، كذلك العبادة والاستعانة بالله تعالى وطلب الهداية مما يفضي إلى التوفيق والسداد، وهذا ما يحتاجه المبدع. فتدبر سورة الفاتحة يوسع مداركنا وينمي ملكاتنا ويفجر طاقاتنا ويشحذ هممنا ويثري تفكيرنا.ويزيد من قدراتنا على التركيز والتحليل والاستنباط بتلاوتها ومعايشتها وتدبرها.

ألا ما أكثر المبدعين والمبتكرين ولكن الاعتبار لما عاد على الإنسانية من نفع وخير جرَّاء تلك المبتكرات والمخترعات التي لا تكاد تحصى، هنا تكمن أهمية الإيمان والقيم التي تغرسها فينا سورة الفاتحة،كم من مبتكرات أضرَّت بالإنسانية ! بسبب ذلك الانفصام بين العلم والإيمان، بين العمل والإحسان، بين المصالح والمبادئ، وهنا تأتي أهمية التربية القرآنية التي تغرس بذرة الإيمان وترغب في الإحسان، وتحقق المصالحة

بين المصالح والمبادئ.

حينما نطلب العون من الله تعالى فمن المنطقي أن نطلبه ونحن في عمل وجدٍّ ومثابرة، إذ لا يعقل أن نطلب العمل ونحن خاملون قاعدون، فطلب العون يقتضي العمل، والعمل وحده ليس كافيا لتحقيق المطلوب ونيل المرغوب ما لم يحالفنا التوفيق، ويصاحبنا العون، والمؤمن يوقن بتقدير الله تعالى وتدبيره وتوفيقه وعونه ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. كذلك طلب العون من الله تعالى لن يكون إلا في عمل نافع للفرد والمجتمع، لن نطلبه إلا بنية صادقة خالصة، والإخلاص سر النجاح، وإذا وضح القصد وضح السبيل.

كذلك أثر تدبر سورة الفاتحة في تطوير الذات إيمانيا وخلقيًّا وفكريًّا وعلميًّا، فكلما قرأناها نرقى ونسمو لمعالي الرتب ومعارج القبول لنقترب ونقترب من درجة الكمال.

تاسعًا: شخص واعٍ، حَسَن الفهم

فتدبُّر الفاتحة مما يجمع شتات القلب ويقوي ملكة التفكير، حيثُ يعي المرءُ ما يقول، وطلب العون من الله تعالى في سائر الشؤون والهداية لكل خيرٍ، والسير على خطى من أنعم الله عليهم، يرقى بالإنسان فيصبح ثاقب الذهن عميق الفكرة واسع الأفق، فالصلاة معراجٌ للنفس ومرقاةٌ للروح، ومشكاةٌ للقلب، ومصباحٌ للعقل، وتنويرٌ للأذهان.

الفرق بين العباقرة وغيرهم من الناس يرجع إلى ما يوجهون إليه هممهم، وإلى قوة

درجة التركيز. تأمل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٢]، كيف ربط بين الفلاح والخشوع في الصلاة بما يستلزمه من تركيز وتدبر، فالخشوع يقتضي التدبر والتفكُر وانصراف القلب لهذا الغرض واجتماعه عليه، بما ينعكس على تفكيرنا في حياتنا.

شخصيةٌ واعيةٌ بما حولها حين يقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فإنه لا يغفل عن حمد ربه وشكره على نعمه الظاهرة والباطنة، وحين يقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ يتذكر تلك العوالم التي تعيش حوله، ويظلُّ على وعيٍ بالكون والحياة، ليزدادَ عمقا في تدبُّره لـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وإذا قرأ: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يتذكرُ هذا اليوم فلا يغيبُ عن خاطرِه ولا يغفلُ عنه بل يصبحُ ويمسي على حذرٍ من هذا اليوم، قال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]. «عَن سفيان بن عينية: كَانَ عُمَر بْن ذر إِذَا قرأ ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: يالك من يوم، ما أملأ ذكرك لقلوب الصادقين !»[(١)].

فإذا قرأ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنه لابد أن يكون على وعيٍ بمفهوم العبادة وأحكامها ومقاصدها وحكمها. فإذا قرأ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ المزي (ت ٧٤٢). (٢١ / ٣٣٨). وسير أعلام النبلاء للذهبي (٦ / ٣٨٨). عُمَرُ بْنُ ذَرِّ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ زُرَارَةَ الهَمْدَانِيُّ، الإِمَامُ، الزَّاهِدُ، العَابِدُ، أَبُو ذَرٍّ الهَمْدَانِيُّ، الكُوْفِيُّ ت ٥٧ هـ.
سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٦/ ٣٨٥).

أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فلا بد أن يكون على وعي بهذا الطريق ومن سبق إليه من المؤمنين المهتدين يتوخَّاها، كما يكون على حذر من طرق أهل الجحود والضلال، يتجنبُها ويتوقَّاها، إنه يسير على نور من ربه وبينة من أمره بتدبُّره وحرصه على فهمه.

والنفس من طبعها النسيان والفتور، والقرآن من مقاصده التذكير الدائم، وكذلك أم القرآن، تذكرنا بما يجب أن نتذكره دائما، فلا نغفل، ولا نفتر، تذكرنا سورة الفاتحة بمعانٍ كثيرة، نذكرنا بربوبية الله للعالم، كما تذكرنا برحمته تعالى التي وسعت كل شيء، وبملكه ليوم الحساب والجزاء، وتذكرنا برسالتنا في هذا الوجود وهدفنا وطريقنا وقدوتنا والمحاذير التي يجب أن نتجنبها. كل هذه المعاني نستحضرها كلما قرأنا هذه السورة الكريمة لنكون على وعي دائم واستعداد، والمؤمن في حاجة دائما للذكرى سيّما تذكر الآخرة، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩] «فعندما يزداد الإيمان بأن هناك حسابًا على اليسير من العمل - ولو كان مثقال ذرة كما تُشير الآيات - فإن ذلك من شأنه أن يدفع المرء للتحرك بحساسية وحذر شديدين تجاه التعامل مع جميع الأشياء. نعم، هذا هو أهم قانون لضبط السلوك ومهما وُضعت القوانين الصارمة في المجتمعات لضبط سلوك الأفراد فلن تؤتي ثمارها إلا إذا بُدئ بإصلاح الإيمان في القلوب لتكون من ثمرته: تقوية الوازع الداخلي... وصدق من قال:

لا تنتهي الأنفس عن غيّها   مالم يكن لها من نفسها دافع»[(١)]

حَسَن الفهم: إن تلاوة الفاتحة في كل صلاة مع تدبرها، وهو الاجتهاد في فهم معانيها ومقاصدها مما يقوي ملكة الفهم تلك الملكة التي حُرم منها كثيرٌ من الناس، خاصة في زماننا حيث اختلاط المفاهيم وانقلاب الموازين، وكيد الأعداء وانتشار الجهل بحقائق الدين، حتى عند بعض المشتغلين بالعلم، تراهم وإن أوتوا قدرا من العلم، لكنهم حرموا من الفهم، قال ابن القيم في إعلام الموقعين: «صِحَّةُ الْفَهْمِ وَحُسْنُ الْقَصْدِ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى عَبْدِهِ، بَلْ مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ عَطَاءً بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ وَلَا أَجَلُّ مِنْهُمَا، بَلْ هُمَا سَاقَا الْإِسْلَامِ، وَقِيَامُهُ عَلَيْهِمَا، وَبِهِمَا يَأْمَنُ الْعَبْدُ طَرِيقَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ الَّذِينَ فَسَدَ قَصْدُهُمْ وَطَرِيقُ الضَّالِّينَ الَّذِينَ فَسَدَتْ فُهُومُهُمْ، وَيَصِيرُ مِنْ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ الَّذِينَ حَسُنَتْ أَفْهَامُهُمْ وَقُصُودُهُمْ، وَهُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِينَ أُمِرْنَا أَنْ نَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَنَا صِرَاطَهُمْ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، وَصِحَّةُ الْفَهْمِ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالْفَاسِدِ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَيَمُدُّهُ حُسْنَ الْقَصْدِ، وَتَحَرِّي الْحَقَّ، وَتَقْوَى الرَّبِّ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَيَقْطَعُ مَادَّتَهُ اتِّبَاعَ الْهَوَى، وَإِيثَارَ الدُّنْيَا، وَطَلَبَ مَحْمَدَةِ الْخَلْقِ، وَتَرْكَ التَّقْوَى»[(٢)].

(١) نظرات في التربية الإيمانية (ص: ١٢).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٦٩). وَقَوْلُهُ: «فَافْهَمْ إذَا أَدْلَى إلَيْك» من مقولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري.

حسن الفهم: نعمة من الله تعالى يستعان به تعالى في تحصيله، وتدبر سورة الفاتحة مما يفتح على العبد أبواب الفهم، حين نتدبرها ونتفهمها ونعِيها، فتفتح لنا أبواب الإجابة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ربما طالعت في الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم وأقول: اللهم يا معلم آدم وإبراهيم علمني ويا مفهِّم سليمان فهِّمني فيجد الفتح في ذلك»[(١)].

فحسن الفهم من مزايا الشخصية الرائدة، قال ابنُ الوزير: «وعمودُ التفاوتِ الذي يدورُ عليه، وميزانُهُ الذي يُعتبر به في أغلب الأحوال هو: التفاوتُ في صِحَّة الفَهْمِ، وصفاءِ الذِّهن، واعتدالِ المِزَاج، وسلامةِ الذَّوق، ورُجحانِ العقل، واستعمالِ الإِنصاف. فهذه الأشياء هي مبادئ المعارف، ومباني الفضائل»[(٢)].

عاشرًا: شخصٌ مثقَّفٌ مرهف الحسِّ:

له معرفةٌ بالكونِ والعوالمِ والأممِ والممالِكِ والحضارات والثقافات والأفكار والتوجُّهات. فحينما يَقْرَأُ المؤمنُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يدركُ أن هناك عوالمَ كثيرةً، فيتطلَّعُ إلى التعرُّفِ عليها، ليملكَ تصوُّرًا أعمق للكونِ الذي يعيشُ فيه، ويعرفَ

(١) فتاوى ابن تيمية (٤/ ٣٨).

(٢) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (١/ ٢٤٤) لابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين (ت ٨٤٠هـ).

دورَه في هذه المنظومة الكونية، ويزداد يقينا بعظمة الخالق جلَّ وعلا، فقد جمع بين المعرفة والغاية والمنهج والثمرة: معرفة الله تعالى وحقِّه على العباد، والغاية التي من أجلها خلقنا، والمنهج الذي نترسَّم به طريقَنا نحو تحقيق هذه الغاية الأسمى، والثمرة التي نرجوها من وراء سعينا نحو غايتنا.

وهذا المسلمُ المثقفُ مرهف الإحساس رقيقُ المشاعر؛ لأنه يتذكر دائما رحمة الله تعالى، حين يقف مراتٍ كثيرةً في يومِهِ وليلتِهِ أمام الاسمينِ الجليلينِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وهذه الثقافة ثقافةٌ واعيةٌ مبصرةٌ؛ إذ أنها لا تقف عند أقطار هذا الكون المادي وحدود تلك الدنيا الفانية، بل تشمل ما وراء هذا الكون من غيبياتٍ كُشفت عن طريق الوحي، وما وراء هذه الحياةِ من حياةٍ باقيةٍ، ثم إن هذا المثقفَ لا بُدَّ له من رسالةٍ واضحةٍ ورؤيةٍ مبصرة وإدراكٍ لواجبه نحو خالقه ورجائه منه، وكل ذلك في سورة الفاتحة.

شخصٌ مثقَّفٌ حريصٌ على المنهج القويم والسلوك المعتدل في سائر أموره ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

مثقَّفٌ: له معرفةٌ بالأممِ الصالحةِ، والمجتمعاتِ الفاضلةِ، يُعْنى بتتبُّعِ أخبارِها والاقتباس من هدايتها والاهتداء بصلاحها ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

مثقف: له معرفةٌ بطرقِ الضلالِ وسُبُلِ الغِوايةِ، والأديان المحرَّفَةِ والوضعية، والفلسفاتِ الضالَّة والتياراتِ المنحرفةِ، والبدع والأهواء، والطوائف التي عرفت

الحق وجحدته والتي ضلت عنه، يحذرُها ويحذِّرُ الناسَ منها. ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

لقد ارتبطت كلمة المثقف في عصرنا بذلك الشخص الذي يقرأ الصحف والمجلات بما تفيض به كل يوم من غثٍّ وسمينٍ، وعسلٍ وسموم، ذلك الذي يهتم بالفنون وأخبار أهل المجون ويتابع عروضهم العبثية، ذلك الذي يحمل أفكارا مناهضة للدين مجافية للفطرة، ذلك الوعاء الذي يصبُّ فيه الغربُ ذَنُوبًا من أفكار وفلسفات قائمة على أساطير وأوهام وأديان محرفة ونظريات مادية، ذلك الشخص المتحرر من القيم والفضائل لا يقيم لها وزنا، ذاك الذي يرتاد المقاهي ويختلف إلى دور العرض والمسارح.

لكن المثقف الحقيقي على هدى وبصيرة، المثقف الحقيقي صاحب نظرة ثاقبة للكون من حوله، نظرة بعيدة للمستقبل يستشرفه بنور الإيمان، نظرة متأنّية للحاضر ومكانه الصحيح فيه ودوره المنوط به، نظرة فاحصة للتاريخ يستخلص العبر من المواقف والتجارب الإنسانية، فيتأسّى بصالحها ويحاذرُ طالحها، نظرةً سديدة لطرق الحق والغواية. إن هذا ما توجِّهنا إليه معاني سورة الفاتحة كلما تلوناها.

شخص مرهف الحسِّ؛ فسورة الفاتحة ترققُ القلوب وتثيرُ الوجدان، وتسمو بالأرواح وتحلِّق بها في آفاقٍ رحيبةٍ، وتملأ القلب بتعظيم الله ومحبته، والشوقِ إلى لقائه، وحفظِ العهد معه بعبادته وحده والاستعانة به، وطلب الهداية منه. واستحضار الاسمين

الجليلينِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مما يرقِّقُ القلوبَ ويثيرُ بواعث الشفقة والرفق.

مرهف الحسِّ: تذوبُ مشاعرُه حُبًّا لأهل الإيمان، ويشعرُ بالألفة والانسجام، حتى صار يدعو بلسانهم ويطلبُ الخير لنفسه ولهم فيرتل في صلواته: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ لأنهم جميعا قلبٌ واحدٌ وروحٌ واحدة، على حد قول الشاعر معبرًا عن هذه الألفة والوحدة:

لقد فنيتُ بك عني ... حتى ظننت أنك أني.

وقول الآخر:

يا أخي في الهند أو في المغربِ ... أنت لي أنت مني أنت بي [1]

مرهفُ الحسِّ: يحبُّ أهل الإيمان ويطلب الخيرَ لهم، ويخفقُ القلبُ شوقا ولهفةً للحاقِ بركبِ الصالحين.

(١) البيت من قصيدة مسلمون مسلمون للدكتور القرضاوي.



المبحث الثالث: السمات المجتمعية للشخصية المسلمة كما تصوغها السورة

يحرص الإسلام على بناء الشخصية الاجتماعية التي تعرف واجباتها كما تعرف حقوقها وتحسن التعامل، وتبذل الجهد وتقدم الخير لمجتمعها، وتتحمل المسئولية وتمد يد العون وتفيض بالعطاء.

1. اجتماعي.
2. شخصية قيادية رائدة.
3. متعاون.
4. يؤدي واجباته ويعرف حقوقه.
6. إيجابي.

«فقد يبدو الإنسان لطيف المعشر حلو الشمائل حين تلتقي به لأول وهلة لقاءً محدود التعامل، أو لقاء في فسحة لا تحتك فيه المصالح ولا تحتاج فيه «الذات» إلى البروز. ثم تفاجأ به ذا جفوة وغلظة، أو ذا أنانية حادة، أو ذا نزعة إلى التسلُّط، أو كسولًا لا يتعاون مع الآخرين، حين تجمعك به ظروف تضطر الإنسان أن يكشف عن حقيقة ذاته. وخاصة ظروف الضيق والشدة. وهي أشدُّ ما يبرز حقيقة الإنسان. ومن هنا لا يستطيع المربي أن يعرف طبيعة الشخص الذي يربيه حتى يوجده في جماعة، ويرقب طريقة تصرفه إزاءها. ثم يقوِّم ما يحتاج في نفسه إلى تقويم»[١].

---

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب (٢ / ٢٧٦).

من هنا تبرز مقومات الشخصية تلك المقومات المجتمعية من خلال دورِه وسلوكِه الاجتماعيِّ النابع من تكوينه وتأهيله.

أولا: شخصٌ اجتماعي

من معالم شخصية المسلم أنه مؤهَّلٌ للعمل في جماعة، لا يعرف الأنانية ولا الأثرة، ولا العزلة عن المجتمع، بل يهضم حظَّ النفس في سبيل الصالح للمجتمع المسلم الذي يؤوب إليه وينتمي له، ولا شك أن العمل الجماعي أعظم ثمرة وأشد أثرا من العمل الفردي.

كما صنع الأعرابي عند موته حيث استدعى أبناءه وقد أعدّ لهم حزمة من الأعواد، فتقدم إلى كلِّ واحدٍ منهم أن يكسرها. فلم يقدر أحدٌ على كسرها. ثم بدّدها فتقدم إليهم أن يكسروها. فاستسهلوا كسرها. فقال: كونوا مجتمعين ليعجز من ناوأكم عن كسركم،كعجزكم عن كسرها مجتمعةً. فإنكم إن تفرقتم سهُل كسرُكم وأنشد:

كونوا جميعاً يا بَنِيَّ إذا اعترى خطبٌ ولا تتفرقوا آحاداً

تأبى العِصِيُّ إذا اجتمعنَ تَكَسُّرًا وإذا افترقنْ تكسرتْ أفراداً[(١)]

وهذه سورة الفاتحة، مناجاةٌ مع الله - تعالى - بلسان الجماعة وليس بلسان الفرد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٤ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٥ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

(١) الموقف لأكثم بن الصيف. مجاني الأدب في حدائق العرب (٢ / ١٤٥).

لتغرس في نفس المؤمن روح الأخوّة، وعُروة المحبة، ورابط الوحدة: وحدة الكلمة، والعقيدة، وحدة الرسالة، وحدة العبادة، وحدة المنهج، وحدة الغاية والوسائل، وحدة الرؤية، وحدة الفكر والمشاعر، وحدة الطموحات والآمال، حين يقرأ الإمام الفاتحة وينصت إليه المأمومون خاشعين، قد توحدت مشاعرهم ومطالبهم، ثم حين يؤمنون جميعا في نَفَسٍ واحد.

تأمل في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ «كأن العبد يقول: إلهي ما بلغت عبادتي إلى حيث أستحقُّ أن أذكرها وحدها؛ لأنها ممزوجةٌ بجهات التقصير، ولكني أخلطُها بعبادات جميع العابدين، وأذكرُ الكلَّ بعبارة واحدة، وأقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾... إذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فقد عرض على حضرة الله جميع عبادات العابدين، فلا يليق بكرمه أن يميز البعض عن البعض، ويقبل البعض دون البعض، فإما أن يرد الكلَّ وهو غير جائز؛ لأن قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دخل فيه عبادات الملائكة وعبادات الأنبياء والأولياء، وإما أن يقبل الكل وحينئذ تصير عبادة هذا القائل مقبولة ببركة قبول عبادة غيره، والتقدير كأن العبد يقول: إلهي إن لم تكن عبادتي مقبولة فلا تردَّني لأني لست بوحيد في هذه العبادة، بل نحن كثيرون فإن لم أستحق الإجابة والقبول، فأتشفع إليك بعبادات سائر المتعبِّدين فأجِبني»[١].

(١) التفسير الكبير للرازي (١ / ٢٠١) بتصرف.

كذلك الأمر في طلب الهداية بصيغة الجمع ﴿ٱهۡدِنَا﴾ لأنها أقرب إلى الإجابة من (اهدني)؛ فالدعاء كلما كان أعمَّ كان إلى الإجابة أقرب، والمؤمن لا يطلب الهداية لنفسه فحسب بل يطلبها أيضا لجميع المؤمنين، وفي هذا ما يدلُّ على محبته لإخوانه وحرصه على نيلهم الخيرات، والدعاء لجماعة المؤمنين أرجى للقبول وأقرب إلى الإجابة.

وفي التعبير بـ ﴿نَعۡبُدُ﴾، و﴿نَسۡتَعِينُ﴾ بيان لوحدة المشاعر حتى صار الفرد يتكلم باسم الجماعة ويعبِّر عن حالها، فالمسلمون سواسيةٌ كأسنان المشط، وهم كالجسدِ الواحد، والبنيانِ الواحد، وتلك أسمى صور الوحدة، وحدة القلوب ووحدة الخواطر. كما أن الإتيان بضمير المتكلم جمعًا في الموضعين ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أبلغ؛ فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته، فأتى به بصيغة ضمير الجمع أي نحن معاشر عبيدك مقرُّون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك، فيكون هذا أحسن وأعظم موقعا عند الملك»[(١)].

يحرص الإسلام على غرس روح الجماعة في الأفراد، ولذا نجد العبادات تسودها روح الجماعة الصلاة في جماعة، الجُمع، صلاة العيد، أعمال الحج، صوم رمضان، وغيرها

(١) بدائع الفوائد - (٣ / ٥٨)

من العبادات التي تبث فينا هذه الروح، فلا يعيش الإنسان منعزلا وحيدا، ولا يمسي منفردا قاصيا، فيكون لقمة سهلة لأعدائه، ويبقى فريسة لوساوس الشيطان تنهشه، وفي الحديث «عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الجَنَّةِ فَلْيَلْزَمُ الجَمَاعَةَ»[(١)].

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ»[(٢)].

وفي طلب الهداية إلى الصراط المستقيم دليلُ حرصِ المسلمِ على وحدة الصف وجمع الشمل على صراط واحد ومنهج واحد، فإن الناكبين عن الصراط المستقيم تتشعَّبُ بهم الطرقُ وتتبلبلُ الأفكارُ وتتفرعُ السُّبُل، فتحلُّ الفرقة ويقعُ التباعد، ويدبُّ التباغض، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا»، قَالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ، وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ السُّبُلُ، لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣])[(٣)].

(١) رواه الترمذي في السنن (٤/ ٣٥) ٢١٦٥ من حديث ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما، وقال حديث حسن صحيح. رواه النسائي في السنن الكبرى (٨/ ٢٨٦) ٩١٨١

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٤٥/ ٥٠٧) وقال محققه:إسناده حسن.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (١ / ٤٦٥)، والحاكم في المستدرك (٢ / ٣٤٨) وقال هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه ووافقه الذهبي، و الدارمي في السنن ٢٠٢.

وفي طلب المؤمن الهداية له ولجماعة المسلمين دليلٌ على سلامة صدره ونقاء سريرته وطهارة قلبه، حيث يطلبُ لإخوانه ما يطلبُ لنفسه، يحبُّ لهم ما يحبُّ لنفسه. «وليس بخاف إن التعبير جاء بصيغة الجمع ﴿ٱهۡدِنَا﴾ وليس بصيغة المفرد؛ لتأكيد تلك الروح الجماعية التي يحرص الإسلام على بثها، وكما في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بيان لمعالم هذا الطريق وأنه ليس طريقا فرديًّا، بل طريقٌ جماعيٌّ تجتمع عليه القلوب وتتآلف الأرواح وتتلاقى الأفكار وتتوحد الرؤى.

وفي التأمين في وقتٍ واحدٍ ونفسٍ واحدٍ ما يرمزُ إلى روح العمل الجماعي في انسجامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا؛ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[2].

ثانيا: شخصية قيادية رائدة

لابد لكل مجتمعٍ صالحٍ من مناراتٍ يهتدِي بها، ونجومٍ يستنير بها، ومُثُلٍ عليا يطمحُ

(١) تأملات في سورة الفاتحة، حسن باجودة، ص ١١٣ بتصرف. مطبوعات رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، سلسلة دعوة الحق.

(٢) رواه البخاري في صحيحه بَاب جَهْرِ الْإِمَامِ بِالتَّأْمِينِ حديث ٧٤٧، ومسلم في صحيحه، الصلاة باب التسميع والتحميد والتأمين حديث ٤١٠.

إليها، وتاريخٍ مشرقٍ يعلِّمه أبناءه، ويلتمسُ منه العبر والعظات، ويستلهمُ منه البطولاتِ والأمجادَ، وقادة عظام يتقدمون الصفوف ويقودون الأمة في شتى الميادين، وسورة الفاتحة يفوحُ منها عبقُ هذا التاريخ وتلوحُ تلك المناراتُ التي أضاءت للإنسانيةِ طريقَها ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ والذين أنعم الله عليهم جاء بيانُهم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال تعالى عن عيسى عليه السلام ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

والقرآن الكريم سجلٌّ زاخرٌ بمآثر الأنبياء والصالحين ومناقبهم والدعوة إلى التأسي بالأنبياء والاقتداء بهم والتماس طريقهم واقتباس أنوارهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] فمن أراد القدوة الطيبة والأسوة الحسنة في شتى الميادين وسائر المجالات فليتلمسها في قصص القرآن وسيرة نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وحياة الصحابة والتابعين والأئمة المهديين، سيجد في حياة الأنبياء والصالحين وسيرة سيد المرسلين نماذج مثلى ومثلا عليا في شتى المجالات وسائر الميادين.

مع ما في قراءة هذه السورة وتدبُّرها من خير وبركة وتثبيت للفؤاد وربط للقلب وتزكية للنفس، وقوة للعقل، ورياضة للذِّهن، ودُربة على التفكير والاستنباط، وطلب

العون والهداية والاستقامة من الله، وتلك من مؤهلات القيادة ومقومات الريادة، وذلك هو المنهج الرباني لصناعة الأبطال والعباقرة الأفذاذ. فمن أراد أن يسود وأن يقود فليجعل من تلاوة الفاتحة وتدبُّرها في صلواته زادا له ونبراسا وطاقة ومنطلقا. ولقد كان للتربية القرآنية أثرٌ عظيمٌ على جيل الصحابة الذين برز فيهم كثيرٌ من القادة والساسة الراشدين والمربين والمعلمين ببركة تلك التربية الراشدة.

والإمامة والقيادة هبةٌ ومنحةٌ من الله، تطلب منه سبحانه مع الأخذ بأسبابها، فهي موهبةٌ واكتساب، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فمن أسبابها الصبر واليقين بآيات الله، واليقين بآيات الله لا يتم إلا بتدبرها.

ثالثا: متعاونٌ

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: في طلب العون من الله - تعالى - دليلٌ على اشتغال العبد بالعمل الصالح، فطلب العون لا يكون إلا لمن استغرق في عبادة أو طاعة أو عمل نافع يطلب العون على إتمامه، فالمسلم يعملُ بجدٍّ وتفانٍ، ويعاون الآخرين ليكون أهلا لعون الله - تعالى - «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»[1]، والتعاون من معالم

(١) رواه مسلم في صحيحه، الذكر والدعاء والتوبة، باب فَضْلِ الِاجْتِمَاعِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَعَلَى الذِّكْرِ٣٨ - (٢٦٩٩) .

الشخصية المسلمة ومن القيم الإنسانية الرائعة، وهو ضرورة من ضرورات الحياة، لولاه لما استقامت، فاللبنات المتناثرة هنا وهناك لا قيمة لها لكن حين يبنى بها جدارٌ متينٌ فترى البنيان مرصوصا تدرك أهمية التماسك ومتانة الترابط وقوة التعاون، والإنسان لا ينهض وحده بكل متطلبات الحياة، بل جعل الله الناس متفاوتين متفاضلين ليكمل بعضهم بعضا، ويخدم بعضهم بعضا، على مستوى الأفراد والشعوب. ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]. يقول ابن خلدون في مقدمته:

«الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكَنّ وغير ذلك، وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والاجتماع المهيّء لذلك التعاون...»[(١)].

ولقد دعا القرآن إلى التعاون بين الأفراد والمجتمعات والأمم، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]. قال الماوردي: «ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له؛ لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت

(١) مقدمة ابن خلدون (١/ ٤٢٩).

سعادته وعمت نعمته»[١].

وقال السعدي: «فإنَّ في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكّنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدُّها، من التعاون على البر والتقوى»[٢].

وسئل سفيان بن عيينة عن قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ فقال: «هو أن تعمل به، وتدعو إليه، وتعين فيه، وتدل عليه»[٣] وعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِه»[٤].

والحياة ليست كما يصورها أعداء الإنسانية صراعا طبقيًّا وصداما عارما بين المصالح، واتكالا على الأسباب المادية وحدها، لكنها كما يريدها الإسلام تعاون وتكامل، والتماسُ العون من الله تعالى، قال ابن القيم: «فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا وعلى دفع ما يضادُّه وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأمّلها، وقال ابن تيمية: تأملتُ

(١) أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي (ص١٨٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (ص١٤١).

(٣) حلية الأولياء (٧ / ٢٨٤)

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب المظالم، باب نصر المظلوم ح ٢٣١٤، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ح ٢٥٨٥.

أنفع الدعاء فإذا هو سؤالُ العون على مرضاته ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾»[١].

رابعا: يؤدي واجباته ويعرف حقوقه

فمعرفة الحقوق والواجبات وأداء الحقوق والقيام بالواجبات من صفات الشخصية السوية العادلة، وقد أمر الله بالوفاء بالحقوق ونهى تعالى عن بخسها أو الانتقاص منها ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وحذر من إضاعة اليسير من الحقوق فضلا عن إضاعتها كلها، قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٣].

فإن التطفيف في الكيل والميزان كالتطفيف في الحقوق والواجبات، بعض الناس يقصِّر في واجباته ويفرِّط فيها بينما يصرُّ على استيفاء حقوقه والزيادة عليها، وهذا من التطفيف في الحقوق والواجبات.

وتأمَّل كيف ميَّز القرآن الكريم في آياتٍ كثيرة بين الحقِّ والواجب وقدَّم الواجب على الحقِّ حتى يشتغل به المرء أولا ففيه صلاحه وفلاحه وسعادته في الدارين، ولو أدى

(١) - مدارج السالكين (١ / ٧٨).

كلُّ واحد ما عليه من واجبات لاستوفى أصحابُ الحقوق حقوقهم، فإن أداء واجبٍ يعني الوفاءَ بحقٍّ قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وفي تقديم العبادة وهي حق الله على العباد، على طلب العون وهو مطلب العباد من ربهم بيان لوجوب تقديم الواجبات على المطالب، كذلك لأن حق الله مقدم على حق العباد، وجميع الحقوق تابعة ونابعة من حق الله تعالى، فمن أدى حق الله كان حريًّا بأداء حقوق العباد، ولم يؤدِّ حق الله من فرّط في حقوق العباد، وما لم يعرف العبدُ حقَّ ربِّه فلن يعرف حقّ العبد، ولذا كثر النزاع واحتدم الجدال حول ما هو حق وما ليس بحق، ولقد جاءت الشريعة لبيان حقوق الله وحقوق العباد.

والشخصية المسلمة شخصيةٌ مدركةٌ لواجباتها، واعيةٌ بحقوقها، تسعى لأداء الواجبات كما تحرصُ على الوفاء بالحقوقِ، وسورة الفاتحة تعلِّمُنا درسًا مهمًّا: أن الواجبات أولا، فكما نطالبُ بحقوقِنا ونُلحُّ في طلبها، فعلينا أن نحرص على أداء واجباتنا؟ تأمل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالعبادة أولا وهي حق الله تعالى، ثم طلب العون حظُّ العبد، فبدأ بالاستعانة لأن حق الله أولى من حقوق العباد، وحقُّ الله هو الأصل الذي تنبثق عنه حقوق العباد، والوسيلة مقدمة على القصد، ولقد شقيت كثير من المجتمعات حين انشغل أفرادها بالمطالبة بحقوقهم، دون أن يكترثوا بما عليهم من واجبات، بينما الشخصية المسلمة متوازنة، تؤدي واجبها قبل أن تشتغل بالمطالب.

وكما قيل:

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده   وليس عليه أن تتم المطالب

سأل أحد العوام شيخًا عارفًا فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله فإن قمتُ وخرجتُ تفرقتُ، وإن بقيتُ على حالي بقيتُ على جمعيتي، فما الأفضلُ في حقِّي؟ فقال: إذا أذَّنَ المؤذنُ وأنت تحت العرشِ فقُمْ وأجبْ داعي الله، ثم عدْ إلى موضِعِكَ، وهذا لأن الجمعيةَ على الله حظُّ الروحِ والقلبِ، وإجابة الداعي حقُّ الرب، ومن آثرَ حظَّ روحَه على حقِّ ربه فليس من أهل إياك نعبد[1].

خامسًا: شخصٌ إيجابي

تلاوة هذه السورة الكريمة وتدبُّرها مما يساهم في صياغة الشخصية الإيجابية.

الإيجابية في النظرة للكون والحياة: فالمؤمن يوقنُ بربوبية الله للكون خلقا وملكا ورزقا وتدبيرا وتصريفا، ويعرف قيمة الحياة فيعمرها بالصلاح والطاعة، ويعلم أن للكون نهاية كما أن له بدايةً، فهو على بينة من أمره. ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

والإيجابية السوية من سمات الإنسان الصالح في ذات الوقت؛ فمن نتائج المزج بين طاقات الإنسان كلها وربطها بعضها ببعض، أن يتحول المخلوق البشري إلى طاقة إيجابية عاملة في واقع الحياة. ولكنها الإيجابية السوية التي لا تتنكب الطريق. والإنسان

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١ / ٨٦).

-كما يريده الله- قوة فاعلة موجّهة مريدة، ومن ثم فهو قوة موجبة في واقع الحياة، قوة دافعة إلى الإمام. قوة تسيطر على القوى المادية وتستغلها في عمارة الأرض[(١)] .

إن للإنسان دوره المنشود في هذا الكون فهو قوةٌ إيجابيةٌ، خلقه الله تعالى ليُعمِّر ويطوِّر، وليصلح وينمِّي، واللهُ سبحانه في عونِه بتسخيرِ كثيرٍ من المخلوقاتِ له ومنحِه كنوزَ هذه الأرضِ وخيراتِها، وهو معانٌ من الله كذلك بما وهبه من القُوَى والاستعداداتِ الذاتية.

وتلاوةُ هذه السورة وتدبُّرها في اليوم والليلة مراتٍ ومراتٍ مما يمنحُ المؤمن قوةً في قلبه وسدادا في رأيه وعمقا في نظره وسعة في فكره، فالتدبُّرُ عصفٌ ذهنيٌّ يقوي القدرة على التركيز، مما يعين المؤمن على أن يكون إيجابيًّا، والتدبر زادٌ قلبي يربط على القلب ويثبت الفؤاد مما يمنح للنفس الإيجابية والانطلاق.

الإيجابية في العمل والعطاء: فالمؤمن يتذكر دائمًا أن هناك يوما للجزاء، وأن مالك هذا اليوم العظيم هو المستحقُّ للمحامد كلها، ومجيء ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بين ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ و﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، مما يزيد المؤمن تفاؤلا واستبشارا وتشوُّقًا لما ينتظرُه من رحمات ونفحات، فيحثُّ الخُطى ويغذُّ السيرَ إلى الخير، لينالَ رحمته تعالى في الدارين.

الإيجابية: في طلب العون من الله تعالى على العبادة والعمل الصالح، فلا يعرف

(١) منهج التربية الإسلامية (١/ ٣٠) بتصرف.

الإحباط أو الكسل، أو اليأس أو الملل، بل إن عبادته لله تزيده نشاطا وهمة وإقبالا، واستعانته بالله تزيده تثبيتا ويقينا، وتيسر له العسير وتذلل له الصعاب. ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

الإيجابية: في الثبات على الحق والمضي قُدما على طريقه؛ كما يستفاد من التعبير بالفعل المضارع ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ الدالّ على المداومة والاستمرار.

الإيجابية: في تقويم الذات ومراجعة الأعمال، فكلما قرأ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ يراجع نفسه هل هو عبد لله حقا؟ هل يجرِّد الاستعانة لله وحده؟

الإيجابية: في حبِّه للخير وحرصه عليه لنفسه ولإخوانه المؤمنين: فيطلب الاستعانة للجميع والهداية للجميع. ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

الإيجابية في الولاء والبراء: فالقارئ حين يقرأ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ يشعرُ بالانتماء والولاء لهم، ويذوب شوقا وحنينا إلى أولئك الركب الذين سبقوا على هذا الصراط ويغذُّ في السير على دربهم راجيًا اللحاق بهم، وهذا يحمله على متابعة أخبارهم والعناية بأحوالهم وتحري مناقبهم وتتبع فضائلهم والتخفف من أثقال الدنيا، ليطير في سربهم ويهاجر معهم. فإذا مرّ على ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ تبرَّأ منهم وتعوَّذَ بالله من مسالكِهم الملتوية ودروبِهم المتشعِّبةِ في الضلال والتِّيه، فكان على حَذَرٍ من الفرقتين، الذين عرفوا الحقَّ فلم يعملوا به، والذين ضلُّوا عنه وزاغت قلوبُهم، وهذا يحملُه على معرفة أحوالهم وعواقبِهم للحذرِ منهم ومخالفتهم، والعظة والاعتبار.

الإيجابية: في النصح لإخوانه والتأسي بالصالحين وإن عزَّبهم الزمان وسلوك طريقهم وإن قلَّ السالكون، قال الفُضَيْل بن عِياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تستوحشْ طرقَ الهدى لقلّة أهلها، ولا تغترّ بكثرة الهالكين»[(١)].

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ إنه -بطبيعة إيمانه- لا يملك أن يكون سلبيًّا في الحياة. إن دفعة الإيمان الحية المتحركة تدفعه دفعًا لتحقيقها في عالم الواقع المشهود المحسوس. وإن دستور الله ومنهجه المفضل ليحتِّم عليه -بمقتضى إيمانه بأحقّيته وأفضليّته ووجوبه- أن يعمل على تنفيذه وتحويله من واقعٍ شعوريٍّ إلى واقعٍ عمليٍّ. وإن طبيعة تصوره لحقيقة الإيمان وحقيقة الكون، وحقيقة الإنسان، وارتباطها بعضها ببعض، لينشئ له رأيًا ذاتيًّا في كل أمر يعرض له أو يعرض أمامه، رأي موجه بتوجيهات المنهج، ومسترشد بوصاياه. ومن ثم لا يملك أن يكون سلبيًّا إزاء حادث أو فكرة أو رأي أو عمل، ما دام له تصور خاص لما ينبغي أن يكون عليه الحادث والفكرة والعمل. ثم طاقته الحيوية التي رباها الإسلام... رباها لتعمل، لا لتظل مخزونة بلا انتفاع. تعمل لتعمير الأرض وترقيتها بمقتضى إرادة الله. فهو لا يمكن أن يظل خاملًا كسولًا متواكلًا ينتظر حتى تدفعه الأحداث، ولا يتحرك هو مع الأحداث وقبل الأحداث[(٢)].

(١) الأذكار للإمام النووي (١/ ١٥٢).

(٢) منهج التربية الإسلامية (١/ ٢٣٠) بتصرف يسير.



الخاتمة

١. يسَّر الله تعالى كتابه لتدبُّره وفهمه؛ حتى ينتفع به الصغيرُ والكبيرُ، ويتأثَّرُ به العالمُ والعاميِّ.

٢. تدبُّر القرآن عصمةٌ ووقايةٌ من الفتن، وعلاجٌ لضعف الإيمان وأمراض القلوب، وتثبيتٌ للمؤمن وتوعيةٌ له وتبصيرٌ، وإصلاحٌ للنفس والمجتمع وبناءٌ للشخصية على أسس متينة وقواعد ثابتة، وإعدادٌ لها في أحسن صياغة.

٣. بلاغة سورة الفاتحة ووفائها بالمقاصد والمعاني العظيمة مع وجازتها، لذا كانت سورة الصلاة.

٤. عظمة سورة الفاتحة وبركةُ قراءتها وتأثيرها العجيب في النفوس.

٥. جميع سور القرآن بعد سورة الفاتحة بيان لها وتفصيل لما جاء فيها وتقرير لمعانيها.

٦. ضرورة تدبُّر سورة الفاتحة للانتفاع بثمراتها والتماس بركاتها والتأثُّر بها.

٧. استحضار عظمة سورة الفاتحة وفضائلها الكثيرة وأسمائها وأوصافها الجليلة ومقاصدها الجامعة مما يهيئ النفسَ ويجمع القلب على تدبُّرها والانتفاع بها.

٨. قراءة السورة في الصلاة بتأنٍّ وتؤدةٍ، حتى يتمكن القارئ والسامع من تدبُّرها.

٩. التدبُّر يحتاجُ لتعوُّدٍ وتمرُّسٍ، فهو ملكةٌ ومهارةٌ، وتوفيقٌ من الله تعالى يحتاج لقلبٍ طاهرٍ واعٍ وذهنٍ صافٍ، وفكرٍ حاضرٍ.

١٠. من أبرز من عُني ببيان درر سورة الفاتحة الإمام ابن القيم رحمه الله في العديد من كتابه: زاد المعاد ومدارج السالكين والفوائد وغيره.

١١. أوصي بعقد مجالس التدبُّر، وإقامة دورات تدريبية على مهارات تدبُّر سورة الفاتحة.

١٢. ضرورة غرس روح التدبر في نفوس الصغار حتى ينشّئوا عليه.

تمَّ بحمد الله، كتبه أحمد بن محمد الشرقاوي سالم. والله المستعان.

اَلْمَرَاجِعُ

القرآن الكريم

١. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى: ١٣٩٤هـ.

٢. إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد لغزالي ط دار المعرفة بيروت.

٣. أخلاق أهل القرآن لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (ت ٣٦٠هـ) حققه وخرج أحاديثه: الشيخ محمد عمرو عبد اللطيف بإشراف المكتب السلفي لتحقيق التراث ط: دار الكتب العلمية، بيروت ط:٣، ١٤٢٤هـ.

٤. الاستعانة بالفاتحة على نجاح الأمور، يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن بن عبد الهادي الصالحي، جمال الدين، ابن المبرد الحنبلي (ت ٩٠٩هـ) (مطبوع ضمن كتاب جمهرة الأجزاء الحديثية) اعتناء وتخريج: محمد زياد عمر ط: مكتبة العبيكان، الرياض ط أولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٥. الاستعانة بالفاتحة على نجاح الأمور، يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن ابن عبد الهادي الصالحي، جمال الدين، ابن المبرد الحنبلي (ت ٩٠٩هـ) جزء مطبوع ضمن كتاب جمهرة الأجزاء الحديثية.

٦. أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية د. عبد الحميد الصيد الزنتاني. الدار العربية للكتاب. ليبيا - تونس. ١٩٨٤م.

٧. الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، ترجمة عبد الصبور شاهين ط الرسالة.

٨. إلى الإسلام من جديد، علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي (ت ١٤٢٠هـ) الناشر: دار القلم، دمشق ط رابعة، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

٩. إنه القرآن سر نهضتنا - كيف يمكن للقرآن أن ينهض بالأمة؟ د مجدي هلالي مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م.

١٠. أين الخلل للدكتور يوسف القرضاوى ط دار الصحوة للنشر.

١١. بحر العلوم للسمرقندي أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ) ط دار الكتب العلمية.

١٢. البحر المديد، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ

١٣. بدائع التفسير لابن القيم جمع وتوثيق يسري السيد ط دار ابن الجوزي الأولى ١٤١٤.

١٤. البرهان في علوم القرآن، للإمام الزركشي: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله ط: دار المعرفة - بيروت، ١٣٩١.

١٥. بستان العارفين، لأبي زكريا يحي بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) ط:دار الريان للتراث.

١٦. البيان والتبيين للجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، (ت ٢٥٥هـ) الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣ هـ

١٧. التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام النووي،الوكالة العامة للتوزيع - دمشق،ط١، ١٤٠٣هـ.

١٨. تدبر القرآن، الأستاذ سلمان بن عمر السنيدي الرياض كتاب البيان .

١٩. تفسير الإمام ابن رجب الحنبلي: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن،

السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت ٧٩٥هـ) جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد ط: دار العاصمة. السعودية ط أولى ١٤٢٢ ـ ٢٠٠١ م

٢٠. التفسير الكبير للإمام الرازي: محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي ط دار إحياء التراث العربى.

٢١. تفسير المراغي أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١هـ) ط البابى الحلبي ط أولى، ١٣٦٥هـ.

٢٢. تفسير سورة الفاتحة، الشيخ محمد عبده،المنار ١٣١٩هـ.

٢٣. تفسير عبد الرزاق:أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت ٢١١هـ) ط دار الكتب العلمية. دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده ط دار الكتب العلمية بيروت.ط أولى، سنة ١٤١٩هـ

٢٤. تفسير مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (ت ١٥٠هـ) تحقيق عبد الله محمود شحاته ط دار إحياء التراث - بيروت ط أولى ١٤٢٣ هـ.

٢٥. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (ت ٧٤٢هـ)، تحقيق د. بشار عواد معروف ط: مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٠ - ١٩٨٠.

٢٦. التوازن التربوي وأهميته لكل مسلم، الأستاذ مجدي الهلالي. ط دار السراج الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م.

٢٧. التوجيه والإرشاد النفسي، د. حامد عبد السلام زهران. ط ٣ عالم الكتب.

٢٨. جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي ط١، دار المعرفة، بيروت: ١٤٠٨ هـ.

٢٩. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي، ط: دار احياء التراث العربي بيروت – لبنان ١٤٠٥ هـ.

٣٠. جمهرة الأمثال، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ) ط دار الفكر – بيروت.

٣١. الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه الحسين بن أحمد بن خالويه أبي عبد الله ط: دار الشروق - بيروت الطبعة الرابعة، ١٤٠١

٣٢. حلية الأولياء لأبي نُعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي – بيروت.

٣٣. حياة الصحابة للكاندهلوي مكتبة دار التراث. القاهرة.

٣٤. خصائص المجتمع الإسلامي للأستاذ محمد عبد الله الخطيب دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٥. دلائل النبوة للبيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٠٥ هـ

٣٦. ربيع الأبرار ونصوص الأخيار جار الله الزمخشري ت ٥٨٣ هـ ط مؤسسة الأعلمي، بيروت ط أولى، ١٤١٢ هـ

٣٧. الرسالة القشيرية، للقشيري: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت ٤٦٥هـ)، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، د. محمود بن الشريف ط دار المعارف، القاهرة.

٣٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي محمود أبو الفضل ط دار إحياء التراث العربي بيروت.

٣٩. زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ط مؤسسة الرسالة ـ مكتبة المنار الإسلامية - بيروت - الكويت ١٤٠٧ ـ ١٩٨٦.

٤٠. الزهد للإمام أحمد ابن حنبل ط دار الريان للتراث سنة النشر ١٤٠٨.

٤١. السبعة في القراءات، لابن مجاهد، أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي ط: دار المعارف القاهرة الطبعة الثانية، ١٤٠٠

٤٢. سنن أبي داود، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ط: دار الكتاب العربي بيروت.

٤٣. سنن الترمذي، أبي عيسى محمد بن عيسى، ط دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩٨ م.

٤٤. سنن الدارمي: عبدالله بن عبدالرحمن أبي محمد الدارمي، ط: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٧.

٤٥. السنن الكبرى للنسائي: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن ط: دار الكتب العلمية بيروت ط١، ١٤١١ - ١٩٩١.

٤٦. سنن النسائي: المجتبى من السنن، ط:مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ط٢، ١٤٠٦.

٤٧. سورة الصلاة ترجّ بها المساجد والمصليات، ولكن ! د. عبد الحكيم بن عبد الله القاسم ط المنتدى الإسلامي مجلة البيان.

٤٨. سير أعلام النبلاء، للذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ط: مؤسسة الرسالة الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ.

٤٩. سيكولوجية القصة في القرآن د. التهامي نفرة ٠رسالة دكتوراه جامعة الجزائر.

٥٠. شعب الإيمان، للإمام البيهقي: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ط: دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٠.

٥١. صحيح البخاري: الجامع الصحيح، للإمام: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري ط: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٧.

٥٢. صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، للشيخ: محمد ناصر الدين الألباني ط: المكتب الإسلامي: بيروت الطبعة: الثالثة سنة الطبع: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م

٥٣. صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت تحقيق: أ. محمد فؤاد عبد الباقي.

٥٤. صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، للشيخ عبد الرحمن محمد الدوسري ت١٣٩٩هـ ط دار المغني للنشر والتوزيع بالرياض ط١ ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م.

٥٥. صيد الخاطر جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، ط دار القلم دمشق ١٤٢٥.

٥٦. طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، ط هجر للطباعة والنشر والتوزيع ط ٢، ١٤١٣هـ.

٥٧. طبقات الفقهاء، أبو اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (ت ٤٧٦هـ)، هذبهُ: محمد بن مكرم ابن منظور (ت ٧١١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، ط: دار الرائد العربي، بيروت ط١، ١٩٧٠.

٥٨. الطبقات الكبرى لابن سعد ط دار صادر بيروت.

٥٩. عيون الأخبار، لابن قتيبة أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) ط: دار الكتب العلمية -بيروت ط ١٤١٨ هـ.

٦٠. العقيدة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة، لأبي الحسن الندوي ط ندوة العلماء بالهند.

٦١. العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم لابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين، من آل الوزير (ت ٨٤٠هـ). حققه شعيب الأرنؤوط ط مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. ط٣، ١٤١٥ هـ.

٦٢. العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ)، تحقيق د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، ط دار ومكتبة الهلال.

٦٣. فضائل القرآن وتلاوته للرازي: أبي الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن الرازي المقرىء (المتوفى: ٤٥٤هـ)، تحقيق د. عامر حسن صبري ط دار البشائر الإسلامية ط أولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

٦٤. فقه الأدعية والأذكار، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، أستاذ بالحرم المدني وبالجامعة الإسلامية. ط الكويت. الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ.

٦٥. فهمُ القرآنِ ومعانيهِ لأبي عبدِ الله الحارثِ بن أسدِ المحاسبيِّ الحارث (ت ٢٤٣هـ) تحقيق حسين القوتلي ط دار الكندي ، دار الفكر - بيروت.

٦٦. الفوائد، للإمام ابن القيم محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله ط دار الكتب العلمية - بيروت ط٢، ١٣٩٣ - ١٩٧٣.

٦٧. القرآن وعلم النفس محمد عثمان نجاتي ط دار الشروق.

٦٨. قصة الإيمان، نديم الجسر المكتب الإسلامي.

٦٩. قصة دراستي للقرآن تأليف أبي الحسن الندوي ط دار ابن كثير دمشق ١٤٢٦ - ٢٠٠٥.

٧٠. الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة نجم الدين محمد بن محمد الغزي (المتوفى: ١٠٦١هـ).

٧١. لطائف الإشارات للإمام القشيري: عبد الكريم بن هوازن ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٧٢. لمحات في الثقافة الإسلامية، عمر عودة الخطيب.ط مؤسسة الرسالة سنة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٧٣. الله يتجلى في عصر العلم ، نخبة من العلماء الأمريكيين، دار القلم.

٧٤. ما وراء المجموعة الشمسية برتا موريس باركر ترجمة إدوارد رياض. ط دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م.

٧٥. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (ت ٦٣٧هـ) المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، ط دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة.

٧٦. محاضرات إسلامية هادفة، د. عمر سليمان الأشقر، ط دار النفائس.

٧٧. المحرر الوجيز، لابن عطية عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ) ط مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر - الدوحة ١٤٠٣هـ.

٧٨. مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر المروزي فيصل اباد ط ١، ١٤٠٨هـ.

٧٩. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبد الله ط: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الثانية، ١٣٩٣ - ١٩٧٣م.

٨٠. المستدرك على الصحيحين، للإمام الحاكم، محمد بن عبدالله أبي عبدالله الحاكم النيسابوري ط: دار الكتب العلمية - بيروت ط١، ١٤١١

٨١. المسند للإمام أحمد بن حنبل، أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، (ت ٢٤١هـ)، ط عالم الكتب - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٨٢. المصنف في الأحاديث والآثار، للإمام: أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ط: مكتبة الرشد - الرياض الطبعة الأولى، ١٤٠٩.

٨٣. مع الأنبياء في القرآن الكريم، عفيف عبد الفتاح طباره دار العلم للملايين بيروت ٠

٨٤. معالم التنزيل في تفسير القرآن للإمام البغوي: أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت٥١٠هـ) دار إحياء التراث العربي بيروت ط ١، ١٤٢٠ هـ

٨٥. معالم الشخصية الإسلامية، د.عمر سليمان الأشقر ط مكتبة الفلاح الكويت ١٣٩٩ ط١.

٨٦. معالم في السلوك وتزكية النفوس، عبد العزيز بن محمد بن علي آل عبد اللطيف ط دار الوطن الطبعة: الأولى ١٤١٤هـ الرياض.

٨٧. المعجم الكبير للإمام للطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبي القاسم الطبراني (ت٣٦٠هـ) ط مكتبة العلوم والحكم - الموصل الطبعة الثانية، ١٤٠٤ - ١٩٨٣.

٨٨. معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت ١٤٢٤هـ) بمساعدة

فريق عمل، ط عالم الكتب الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٨٩. مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار عبد العزيز السالمان. الرياض .

٩٠. المفردات للراغب: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ). المحقق: صفوان عدنان الداودي ط دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت.

٩١. المكتوبات، بديع الزمان النورسي رسائل النور.

٩٢. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام النووي، أبي زكريا يحيي بن شرف النووي

٩٣. منهج التربية الإسلامية، محمد بن قطب بن إبراهيم، ط دار الشروق، ط١٦

٩٤. موارد الظمآن لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان، تأليف:عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان (ت ١٤٢٢هـ). ط٣٠، ١٤٢٤ هـ.

٩٥. مؤلّفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (القسم الأول: العقيدة والآداب الإسلامية، مكتبة ابن تيمية.

٩٦. مؤلفات مصطفى المنفلوطي الكاملة، النظرات .

٩٧. نحو إنسانية سعيدة، محمد المبارك، ط٢ دار الفكر بيروت ١٣٨٩هـ

٩٨. نظام الحياة في الإسلام، أبو الأعلى المودودي.

٩٩. نظرات في التربية الإيمانية د. مجدي هلالي المكتبة الشاملة.

١٠٠. النَّظْمُ المُسْتَعْذَبُ فِي تفْسِير غريبِ ألْفَاظِ المهَذّبِ، محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان بن بطال الركبي، أبو عبد الله، المعروف ببطال (ت ٦٣٣هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق: د. مصطفى عبد الحفيظ سَالِم، ط المكتبة التجارية، مكة المكرمة.

١٠١. نفحات الإيمان لأبي الحسن الندوي مجموعة محاضرات باليمن والأردن مؤسسة الرسالة بيروت.

١٠٢. الوابل الصيب من الكلم الطيب، للإمام ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ط: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٥- ١٩٨٥.

فهرس المحتويات